اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٣٥٢]

رئيس التحرير: رجب البنا

obeikandl.com

تصميم الغلاف : منال بدران

obeikandl.com

حِلمِى مُراد

عندما تحب المرأة

(مجموعة قصص مصرية)

الطبعة الثالثة

دار المعارف

obeikandl.com

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا في شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

obeikandl.com

أيها الربيع ... ترفق !

(قصة فى رسالة)

(١)

يا صديقى . .

سألتنى مراراً أن أفتح لك قلبى ، وأكشف ما فيه . . لكننى طالما ترددت . كنت أشفق أن يثير الحديث كوامن الذكرى ، وينكأ جرحاً لم يندمل . . أو لعلنى كنت أسيراً لهذا الطبع الغالب الذى ما زال يلازمنى ، هذه «الحاسة» العجيبة التى تجعلنى لا أجرؤ على أن أبوح بلسانى ، لأعز إنسان . بما أجرؤ أن أبوح به على الورق ، لأى انسان .

فهل ترانى أكاشفك اليوم بسرّى ، لأن سفرك يتيح لى فرصة المكاشفة الصامتة ، بالمراسلة ، وأنا آمن من كل حرج . . من كل دمعة فى صوتى ، أو دمعة فى عينى ؟

. . أو أنى أطلق اليوم سرى ، الذى يجثم على صدرى ، لأنى أريد أن أستريح من همى . . ولأن السر المكتوم يرهق المحبين كما يرهق المجرمين ؟!

. . أو أن هناك شيئاً آخر ، غامضاً ، هو الذى يهيب بى اليوم أن أريق عواطفى لك . . أو لأى كائن كان ؟

أغلب ظنى أنه هذا الصباح الجميل الذى يغلبنى على كتمانى الطويل . لقد صحوت مع الفجر منذ قليل ، ففتحت نافذتى لأتلقى على كفى نداه ، كما يتلقى العابد نفحات السماء ، فإذا بى أرى الدنيا قد اغتسلت بالمطر من برد الشتاء الطويل . وأنسام الربيع العبقة قد بدأت تترقرق فى الجو ، وتنفث فى أهواء سحرها وعطرها . ويلى من الربيع . . إننى أمقته ، بقدر ما يرق نسيمه وتتضوع أزهاره . إنه يزرع فى النفوس بلبلة موجعة ، وقلقاً مبهماً ، وشغفاً حنوناً . . ثم يجىء أوان الحصاد ، فلا يحصد منا إلا أنيناً . . ودمعاً ، لعله أغلى - وأقسى ! - من الدم !

أتعرف من الذين يستمتعون بالربيع ؟ . . إنهم ذوو القلوب الجامدة ، التى تحسن اللهو والخداع . لكن هناك يا صديقى قلوباً مرهفة ، يرهقها الحنان ، والحنين . . كهذا السرب من الفتيات اليافعات النواتى يخطرن الآن أمام نافذتى فى ثياب المدارس . هذه الوجوه التى كانت متوردة فى بداية الربيع ، ما الذى خطف لونها ، وكساها بدل النضرة صفرة وشحوبا ؟ . . إنه الربيع الأثيم . . إننى أعرفه ، وأعرف سرهن جميعاً معه . باحت لى به إحداهن . . واحدة مثلهن ، ذات وجه شاحب حزين . . لن يبرح خيالى !

(٢)

على اثـر تخصصى فى طب العيون وعـودتى من أوربا ـ فى إبان الحرب الأخيرة ، وكانت أزمة المساكن قد اشتدت ـ أخذت أبحث لنفسى عن شقـة فى موضع مناسب تصلح كعيادة ، وأخرى قريبة منهـا ، كى أتخـذها مسكناً . وأخيراً عرّفنى أحد أصدقائى بمحام كهل يملك «فيلا» فى الجيزة مكونة من جناحين ، يقطن هو وأسرته جناحاً منها فقط ـ بعد أن توفيت زوجته منذ عهد قريب ـ ويرغب فى تأجـير الجنـاح الثانى . . فلما عرف الرجل أننى شاب «أعزب» ، أظهـر ترددا . . لكنه وافق فى نهاية الأمر ، تحت الحاح صديقى ، لا سيما بعد أن أعانتنى المصادفة فاكتشف ـ خلال الحديث ـ صلة زمالة قديمة كانت تربط بينه وبين والدى ، رحمه الله .

واضطررت لأن أقنع بتلك الشقة ، فأتخذ منها عيادة ومسكناً فى آن واحد . وبمرور الأيام توثقت العلاقة بينى وبين «محسن بك» ـ وكان هذا اسمه ـ خصوصاً بعد أن أظهرت التجربة لى أنه ، فوق نبل أخلاقه ، «محدث » من الطراز الممتاز . . فكنت أقضى الأمسية معه أحياناً بعد فراغى من العيادة ، نتجاذب الحديث ونسمر . . سواء فى شقته أو شقتى . . وأحياناً نتعشى معاً ، ثم نقضى شطراً من السهرة فى لعبة الشطرنج ، التى كان من هواتها البارعين ، فعلمنى إياها . . ومع مضـىّ الزمن أحسست أن الرجل قد تعلق بى ، وبات يعدّنى

كابن له ، لا سيما ان الأقدار قد حرمته من البنين ، فلم ترزقه إلا بابنتين ، إحداهما كانت فى السابعة من عمرها ، والأخرى فى الثالثة عشرة . .

وكانت الكبرى «ليلى» شديدة الشغف بالمطالعة ، فكانت تجيئنى أحياناً لتستعير ـ أو ترد ـ مجلة أو كتاباً . . أو لتقلب مجموعة المجلات القديمة المجلدة التى تزخر بها مكتبتى . . فكنت أتركها منفردة فى غرفة مكتبى وأتفرغ لشئون مرضاى ، أو أجلس معها قليلا بعد موعد العيادة لكى أرشدها إلى ما تناسبها مطالعته ، وما يعالج حالتها النفسية بالذات ، فقد كانت أميل إلى الكآبة والوجوم ، (أو من ذوات «المزاج السوداوى» كما يقول علماء النفس) ، ففسرت ذلك بأنه ناتج من حساسيتها الشديدة وشعورها ـ المبالغ فيه ـ بضمور جسمها ، وضآلة نصيبها من جمال الوجه ، وفتنة الأنوثة الباكرة . . وإن كان وجهها الحزين «المعبر» ، وعيناها الساهمتان ، قد أضفت عليها لوناً خاصاً من الجمال «النفسى» أعجبنى ، وأثار فىّ نوعاً من الإشفاق عليها ، والاهتمام بأمرها . .

. . ولحظت هى منى ذلك فبدأت تتبسط معى ، إلى حد إبداء رأيها فى انتقاء ثيابى ، ولون رباط الرقبة الذى أرتديه . . وفى الليالى التى كنت أقضى فيها السهرة مع أبيها ، بين حين وآخر ، كانت تدخل لتحضر له شيئاً طلبه ، أو تسأله فى أمر ، فتنتهز الفرصة وتبقى معنا فى «الصالون» بعض الوقت . . حتى ينبهها أبوها إلى أن

ساعـة النـوم قد حانت ، فيتـورد وجههـا خجلا من معاملته إياها كطفلة ، ثم تنصرف مكرهة وهى تتعثر فى مشيتها ، بعد أن تتبادل ووالدها قبلة المساء . .

وجاء يوم عيد ميلادها ، الرابع عشر ، فأقام «محسن بك» لهذه المناسبة حفلة دعانى إليها ، ودعت هى عدداً من جاراتها وزميلاتها ومعلمات مدرستهـا . وخـلال الحفلة أهدتها إحدى صويحباتها دفتر «أوتوجراف» لجمع التذكارات والإمضاءات ، فدارت به علينا كى يخط كل منـا فيه ما يعن له . . ولست أدرى أى شيطان أملى علىّ لحظتها أن أكتب لها هذه العبارة : « . . وأنت على عتبة الأنوثة ، أتمنى لك النجاة من خطرين : الربيع ، والأحلام !» . . فلم تكد تقرؤها حتى تورد وجهها ، وألم بها ارتباك مفاجىء ، حاولت أن تخفيه فزادته المحاولة وضوحاً . . وكان الأثر المباشر لذلك أنها حرصت بقية السهرة على تجنب الاقتراب منى ، أو ترك بصرها يلتقى ببصرى . . ولا أدرى لماذا أحسست إزاء مسلكها هذا بشىء من النشوة ، أغلب الظن أنها نشوة الزهو الذى يتملك الرجل دائماً كلما أحس أن كلمة أو نظرة منـــه قد نفـذت إلى قلب عذراء . . على أننى لم ألبث أن شكـرت لها فى نفسى ابتعادها عنى ، فقد أتاحت لى بذلك فرصة التحدث فى خلوة طويلة مع حسناء رائعة كانت ليلى قد عرفتنى بها فى بداية الحفلة ، بوصف أنها «معلمة البيانو» فى مدرستها ، فلم أشعر إلا وقـد انقضت السهرة وأنا غارق فى نشوة فتنة «عايدة» وعذوبة

شخصيتها ، وليس فى ذهنى غير شاغل واحد ، هو تدبير الحيلة التى تمكننى من أن ألقاها مرة أخرى !

لكن حيرتى لم تطل ، فقد تكفلت ليلى بإيجاد الحل : لم تكد الغريرة ترانى أنصت بإعجاب إلى مقطوعة عزفتها عايدة فى تلك الليلة ، وتأنس منى ميلا وتذوقاً للموسيقى ، حتى رأيتها تهرع إلى أبيها فى اليوم التالى طالبة موافقته على أن تتلقى دروساً فى البيانو . . على يد «أبلة» عايدة .

يا للمسكينة . . كيف خانتها أنوثتها إلى هذا الحد ، فلم تدرك مغزى تحمسى يومئذ لفكرتها تلك ، أو الدافع الذى جعلنى أحرص فيما بعد على «ملازمتها» فى الغالب كلما حضرت عايدة لتعطيها درساً ، مفسراً ذلك بفرط شغفى بالموسيقى ، والبيانو بالذات ؟!

ثم كيف خانتها فطنة الأنثى الفطرية فلم تلحظ النظرات الناعمة التى صرت أتبادلها مع عايدة ـ والتى كانت تزداد نعومة كل يوم ! ـ واللمسات الخفيفة التى كانت تلتقى فيها أصابعنا ، كأنما عفواً ، فوق أصابع البيانو . . والكلمات الرقيقة التى حرص كلانا على إخفاء معانيها الملتوية فى قالب من ألفاظ الكياسة ومقتضيات «الاتيكيت» ؟؟ وكيف أمكن أن يصم قلب الفتاة المرهف عن التقاط موجات العاطفة الجارفة التى سرت بين قلب عايدة وقلبى ، وقد غدا كلاهما جهازاً نابضاً للإرسال والاستقبال فى آن معاً . . ؟

بل كيف أمكن أن يعمى قلبى أنا عن أن يلحظ أعراض العلّة

الخبيثة التى كانت تنسج خيوطها حول قلب الصبية طوال تلك الأشهر ، والهوى الخطير الذى كانت المسكينة سادرة فيه ؟

إنى لأتبين الآن الجواب عن ذلك كله : لقد غفل كلانا عن إدراك هذا التشابك المعقد لسبب واحد بسيط ، هو أن كلانا كان طائراً فى سمائه ، كلانا كان يبكى على ليلاه ، فلم يتنبه لشىء !

.. حتى أقبل الربيع ..

نعم .. فقد أقبل الربيع يا صديقى .. والربيع حين يقبل تطيب الحياة ، وتنتشى الأجسام ، وتثمل الأرواح بخمر عجيبة .. هى مزيج من أنسام الفجر ، وأنفاس الزهر ، وندى السماء ..

أقبل الربيع متلصصاً على قلب ليلى ، الأعزل من كل قدرة على المقاومة .. وكما يجد المرض مرتعاً خصباً فى الأجسام التى أنهكها الجوع ونقص التغذية ، وجد الحب فى قلب الصبية الجائع مرتعه .. فسرى فيه سريان النار فى الهشيم .. وسرعان ما أسفر هواها فى عينيها ، فشب فيهما لهب وهاج .. وتبدلت كآبتها بهجة ، وانكسارها مرحاً ، ولهواً ، وغناء ، يملأ الفضاء ! صارت تصدح بأغانى الموسم الشائعة ليل نهار : فى غرفتها ، وفى الشارع ، والحمام .. أو وهى جالسة إلى البيانو تعزف وتغنى وتضحك ، ثم تقفز من المقعد فجأة فى منتصف المقطوعة كى تقف فى الشرفة المواجهة لى ، كأنما تنتظر منى كلمة إعجاب أو ثناء ..

وفى الصباح الباكر كانت تهبط إلى الحديقة نشيطة كى تقطف لى

باقة من الأزهار الجميلة التى تعرف ولعى بها ، وتوزعها على أصص البيت ، بعد أن ترشق واحدة فى عروة سترتى . . ثم تمضى إلى مدرستها والدنيا لا تسعها من فرط الانشراح . .

***

وكما أصاب التبدل نفسيتها ، نفث أيضاً خميرته فى خلايا جسمها . . فإذا الجسد الضامر قد استطال وامتلأ ، ودبت فيه الأنوثة دبيباً قوياً . . والوجنتان الباهتتان قد اضطرمت فيهما النار . . والعينان الساهمتان قد أفعمتا بنظرات يقظة ساخنة ، بت أحسها تحوطنى وترعانى ، وتتبعنى فى غدوّى ورواحى ، فى إخلاص الكلب الأمين . .

ثم بدأت أتنبه إلى ظاهرة غريبة : صرت أكتشف كل حين اختفاء أشياء صغيرة تافهة من مسكنى : أولها صورة فوتوغرافية ، فمنديل حريرى ، ثم «فردة» واحدة من أزرار القميص الرخيصة . . الخ . . فأيقنت أن الخيال قد شطح بالمسكينة شطحة بعيدة ، وأنها مندفعة فى تيار وخيم العاقبة . .

على أن الذى أثار قلقى ـ جدّيا ـ أن الأنوثة التى أيقظت فى الفتاة عواطفها ، لم ترحمها أيضاً من نزواتها ، فأسلمتها إلى عاصفة من الغيرة الهوجاء كنت ضحيتها أنا ، وكل مريضة أنيقة تدخل عيادتى ، أو قريبة تجىء يوماً لزيارتى . . صرت كثيراً ما أفاجىء شبح ليلى وهى ترقبنا بعينيها من وراء خصاص نافذتها المغلقة ، التى

لا يفصلها عن نافذة عيادتى المفتوحة سوى «منور» ضيق . . وذات يوم جرؤت فسألتنى عن إحدى «زائراتى» ومن تكون ؟!.. فلم أجد مفراً من الزعم لها بأنها إحدى قريباتى ـ لكى لا أثير خيالها البكر ! ـ فأطرقت برهة ثم قالت ، والحسرة تبلل صوتها : «يا إلهى . . لكم هى جميلة !» .

. . فوجدتُنى نهباً لحيرة مريرة ، بين إشفاقى الذى يغرينى بالتسرية عنها بكلمة إطراء ، وبين خشيتى أن تفسر إطرائى بأنه استجابة منى لعاطفتها نحوى . . فخرجت من هذا الموقف وقد ازددت اهتماماً بالبحث عن مخرج سريع من تلك الحال ، ولكن فى غير عنف يصدم عواطف الفتاة صدمة قاسية !

***

لكن المحظور قد وقع . . وعلى أسوأ صورة !

اقترب يوم « شم النسيم» ، فاقترح «محسن بك» أن نحتفل به فى القناطر الخيرية . ورحبت أنا بالفكرة ، بعد أن فهمت أن «عايدة» ستذهب مع الأسرة ـ ضمن لفيف من الصديقات ـ وكانت قد غدت فى حكم «خطيبتى» ، بعد أن تفاهمنا سراً على الزواج . .

وفى فجر عيد الربيع مضت بنا الباخرة النيلية ، تهدهدها أمواج النهر الخفيفة اللينة ، وكأنها تعلو وتهبط على خفقات صدر ناهد لحسناء ، أو جنية من عرائس الماء . . وخلال الطريق اختلست فرصة انشغال القوم فى لعبة مسلية و «انسرقت» مع عايدة إلى الطرف

الآخر من الباخرة ، حيث انحنينا على الحاجز الحديدى ، نطل على المـاء والمـروج الخضراء ، ونعب جرعـات منعشـة من الهـواء . . ولا أدرى كيف استخفتنى عذوبة النسيم ، وجمال الشروق ، فلم أعبأ بمن قد يرانا ـ أو لعلنى نسيت أن فى الكون سوانا ! ـ فضممت خطيبتى إلى صدرى ، وغبنا فى قبلة طويلة . . قبلة لم أفق منها إلا حين فتحت عينى على نظرة انزعاج مفاجئة ومضت فجأة فى عينى عايدة ، ثم همسـت لى وهـى تنـفـلت من بين ذراعى : «ليلى قد رأتنا !» . . فاستدرت مسرعاً . . ولكن المسكينة كانت قد توارت !

وكـما يحس المجـرم الذى ارتكب إثماً ، أحسست أنا يومئذ وأنا أواجه ليلى بعد حين ! ـ وبخاصة عندما تبينت شدة وقع الصدمة فى نفسها ، والشحوب المخيف الذى اعتراها ! ـ وطوال اليوم ظل ذلـك «الحـادث» يلقى ظله الثقيل على ثلاثتنـا ، كسحـابـة قاتمة انعقـدت فجـأة فى الجـو ، فكدرت من صفو نزهتنا . وفيما كانت البـاخرة عائدة بنا قبيل الغروب ، وأنا مستلق على مقعد طويل ، بمفردى ، لحظت ليلى تحوم حولى ، كالحائرة . . تقترب خطوات ، ثم تجفل فتقف فى مكانها متظاهرة بالتطلع إلى الماء ، لحظات . . قبل أن تعود أدراجها إلى الجمع الصاخب . . وأخيراً حزمت شجاعتها وأقبلت علىّ ، متكلفة ابتسامة خائرة . . ثم ابتدرتنى بهذا السؤال : «وامتى ح نبارك لك يا دكتور ؟» . . فأجبتها ، كاذباً ، بأننى لم أفكر فى الأمـر جدياً . . ولكنهـا لاحقتنى فى إصرار : «إزاى ، دى أبله

عايدة قالت لى دلـوقت إن الخطبة بعد أسبوعين !» . . وأسقط فى يدى ، فلم أجد سوى أن أريت على ذراعها ، مواسياً . . وعندئذ خانها تجلدهـا ، فارتعشت شفتـاهـا وهى تنظر إلىَّ بعينين ترطبهما الدموع . . ثم انطلقت لا تلوى على شىء !

***

. . ومضى بعد ذلك أسبوع ، لم أرها فيه أو يقع بصرى على ظلها فى البيت ، أو وراء خصـاص النافذة ـ إذ أفلحت فى أن تتجنبنى وتختفى من محيطى تماماً ! ـ لكنى كنت أعود أحياناً فى ساعة متأخرة من الليـل فألمح نور غرفتها ما يزال مضاء ، ويخيل إلى أنى أسمع صوت نشيج مكتوم ! . . على أننى حاولت ألا ألقى بالاً إلى الأمر ، لا سيما أننى كنت منشغلا فى إعداد معدات الخطبة . . بل لا أكتمك أنى نسيت الصبية فى غمار سعـادتى بخـطيبتى . . فإن السعـادة يا صديقى تجعلنا أنانيين ، وتخلق من قلوبنا أحجاراً أقسى وأصلب من الصوان !

. . لكن ليلى جاءتنى أخـيراً فى نهاية الأسبوع ، تطرق بابى لتسألنى أن أحملها معى فى سيارتى إلى شارع فؤاد الأول[1] ، كى تبتـاع بعض أشياء . . فلم يكـد بصرى يقـع عليهـا حتى هالنى ما أصابها من نحول فى الأسبوع الذى احتجبته ، فسألتها إن كانت

---

(١) شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة الآن .

تشكو مرضاً . . لكنها أجابت فى صوت خائر : «أبداً ، بس الامتحان قرب وباسهر كتير فى المذاكرة . .» . . وكنت أعلم أنها تكذب ، لكننى أغضيت . .

ومضت بنا السيارة ، حتى خلّفنا شارع الجيزة العمومى وانحرفنا إلى طريق الجزيرة الساكن ، فمالت ليلى فى مقعدها إلى الوراء ، وهى تتمطى وتملأ رئتيها من النسيم المعطر . . ثم سألتنى أن أضاعف من سرعة السيارة كى نستمتع بعذوبة الهواء ، فأجبتها إلى طلبها . . وإنى لأذكر الآن أنى فاجأت عينيها لحظتئذ تختلسان النظر إلىّ ، وفيهما نظرة غامضة زائغة لم أعبأ بها إذ ذاك ، فقد استغرقنى أريج الحدائق المجاورة ، فشردت فى أودية الأحلام السعيدة التى كانت تملأ رأسى . . وفجأة ـ آه ، إن قلمى ليرتجف الآن وأنا أستعيد ذكرى تلك اللحظة المشئومة ! ـ فجأة أحسست بهزة عنيفة . . وإذا بباب سيارتى المجاور لليلى يتأرجح بشدة . . ومقعدها خال منها !

وكان عسيراً على أن أدرك حقيقة ما حدث قبل لحظات خاطفة ، أوقفت فيها السيارة ثم عدت بها مسرعاً بضعة أمتار . . إلى حيث كانت ليلى ملقاة على الرصيف الحجرى الذى تخيرته لتنفيذ فكرتها الجنونية . .

وكان الدم ينزف من فمها . . فلم أكد أرفع رأسها فى رفق ، على ذراعى ، حتى فتحت أجفانها بعد جهد كبير . . فلما رأتنى ، اغتصبت من قواها الخائرة شبه ابتسامة ، ثم سبحت عيناها فى الدمع

وهى تبذل محاولة يائسة كى تتكلم . . فأدنيت وجهى منها ، وإذا هى تهمس فى حشرجة متقطعة باكية : «مجدى . . قبلنى ، قبلة واحدة . . أخيرة !» . .

فانحنيت بفمى نحوها ، ودموعى تتساقط على وجهها ، واختلجت شفتاها تحت شفتى اختلاجة قصيرة ، كالطائر المذبوح . . ثم سكتتا .

***

وحين عدت إلى سيارتى ، وجدت على مقعدها مظروفاً صغيراً ، باسمى ، لم أكد أفتحه حتى تساقط منه : منديل حريرى ، وأزرار قميص ، وأشياء صغيرة أخرى لا أذكرها . ووجدت صورتى الشمسية المفقودة فى قلب خطاب قصير ، تشرح لى فيه التعسة كل شىء !

(٣)

وها أنت ذا ترانى اليوم يا صديقى ، بعد سنوات ، أعيش طاوياً قلبى على مأساتى الدامية ، زاهداً فى أن أفتحه لحب جديد . . أو لعلنى عاجز ـ بعد أن خبرت عاطفة ليلى ـ عن هضم العواطف الرخيصة التى أصادفها فى غيرها من النساء .

أما عايدة ، فقد كان ذلك الحادث آخر ما بينى وبينها . . لا لذنب جنته ، وإنما لفرط احساسى بأن أخدوداً عميقاً قد فغر فاه

فجأة بين أقدامنا ، ففصل بيننا إلى الأبد ! . . أخدوداً من التشاؤم المخيف الذى كان يجعلنى أجفل وأتراجع كلما هممت بأن أعبر إلى سعادتى فوق جثة ضحيتى . . التى أحبتنى ، وماتت من أجلى . . ذات ربيع !

***

نعم . . «ذات ربيع» . . فلن أنسى ما حييت أن هذا الآثم هو المسئول عن كل ما حدث . . **هو الذى فضّ بأنامله الرقيقة غلاف قلب الصبية ، وسكب فيه سمه المزعاف : أحلامه ، وأهواءه ، ونجواه . . وهو الذى سرق من أجفانها النعاس ، ومن وجنتيها الحمرة ، ومن ثغرها دمه !**

فحيثما صادفت يا صديقى عذارى شاحبات ، ذوات عيون ذابلة ، فاعلم أن ساحر الطبيعة قد مسهن بعصاه . . فخلّف فى كل قلب جرحاً ، وفى كل عين دمعاً ، وفى كل فم مرًّا . . وفى كل نفس صداه !

وحيثما صادفت ربيعاً ، يشيع فى الكون شذاه ، وينثر الطعم لضحاياه . . فلا تنس أن توصيه بهن . . قل له أن يترفق . . بالقلوب الغضة !

(مارس ١٩٤٧)

الـــرد خـــالص

(١)

جلست تداعب كلبها الأبيض الصغير ، وجلس هو إلى جوارها يداعب بمنديله حبات العرق المتساقطة من وجهه . .

كان كلاهما ينتظرالقطار الذى يقلّه من محطة « كوبرى الليمون » إلى منزله . .

وجمع بينهما ملل الانتظار ، وخفة الكلب الجميل الذى مرق من بين يديهـا فقفز إلى جانبه ، ومضى يحييه على طريقته الخاصة . . بنهش ملابسه ! .

انتهـرتـه صاحبته ، دون جدوى . . فلم تر بدّاً من أخذه بين ذراعيها ، والاعتذار إلى جارها بكلمات رقيقة موجزة ، كانت كافية لأن تطلق لسانه برد لبق . . وعندما أقبل القطار الذى سيركبانه ، كان قد عرف اسم كلبها «نوسى » . . وعرفت هى أن الجو حار !

سارا معاً متجهين نحو القطار ، وكل منهما ينوى أن يحتل مقعداً فى عربـة الـدرجـة الأولى ، متناسيين «أبونيهى السكندو» اللذين يدفئان جيبه وحقيبتها . .

وفى القـطار جلسـا فى مقعـدين متقـابلين . . قدم لها أقـراص

النعناع ، فتناولت منها شاكرة . . وانقضت فترة صمت ، أنهاها هو بكلمة أبدى فيها إعجابه بـ «البارفان » الذى ينبعث منها فيعطر مزاجه ، متسائلا عن نوع الزهرة التى قطر منها العطر . . فأجابت فى اقتضاب : «لافاند » (Lavande) !

ثم تطرق به الإعجاب إلى . . لون عينيها الفاحم . . فشعرها المتهدل الجميل . . فأنفها الدقيق . . ففمها القرمزى ، الذى خلق ليرشق بالقبل !

. . وإزاء إصراره ، تشعبت بينهما الأحاديث . . وتبودلت ، بعد حين ، الضحكات . . يطلقها هو قصيرة خافتة ، وتهمس هى بها رقيقة واهنة ، ثم تقطعها بالضغط على شفتيها فى هدوء . .

وحين مر القطار على الحدائق الجميلة التى تترامى عند أعتاب الطريق ، ذكرته أشجار السرو العالية بما رآه فى إحدى ضواحى أثينا . . وذكرتها برحلتها القصيرة إلى(بور توفيق) . .

ونبتت فى ذهن كليهما فكرة كافية عن الآخر : عرفت منه أنه مهندس بإحدى شركات البناء التى احتكرت مبانى بعض المناطق بالزمالك ، وأنه يعيش وحيداً فى مسكن صغير بإحدى عمارات المطرية . . وعرف هو منها أنها تقطن مع والدتها وأخواتها «فيلا» كبيرة خلفها والدها للأسرة قرب محطة «عين شمس » . .

. . وأما هو فيميل إلى لون ثوبها «السيكلامان » الفاتح ، ويفضل من كواكب السينما«ريتا هيوارت » . . وهى ، تحب من الألوان

الأزرق القاتم ، ومن الممثلين «تايرون باور» . .

وبعد إلحاح منه ، اتفقا على حضور فيلم «محايد» لنجوم آخرين . . وقبل أن يفترقا ، كانت الكلفة بينهما قد زالت . . وغادر «رشدى» القطار فى المطرية ، تاركاً «رئيفة» تواصل رحلتها إلى عين شمس . .

وفى القطار العائد إلى (كوبرى الليمون) بعد نصف ساعة ، جلس كل منهما فى إحدى عربات الدرجة «الثانية» ، فى الطريق إلى بيتيهما : هو فى الزيتون ، وهى فى كوبرى القبة !

وكان من حسن الحظ أن لم يلتقيا !

وحين وصل إلى منزله ، واستقبله كلب الجيران بالنباح ، لم يزجره كعادته . . بل غالى فى ملاطفته . . فقد أحس لأول مرة بفوائد الكلاب !

(٢)

يا لعبث الرجال . . يعمد الواحد منهم إلى إغراء المرأة ، والتماس رفقتها فى الملاهى والنزهات ، كى يقضى معها وقتاً طيباً ، ويغرق فى حنانها ما بنفسه من الضيق والسأم ، غير عابىء بما يكون من أمرها حين يتركها ـ وقد استطالت فى التعريض بها الألسنة ـ ليتزوج من إحدى «بنات البيوتات» ، مسكتاً ضميره بالادعاء أن كرامته تأبى عليه الزواج من فتاة سمحت له أن يتعرف بها . . «فى الطريق» !

وهكذا ، ما كانت العلاقة التى أغرى رشدى الفتاة على الرضا بها لتحتمل فى عرفه أن تنتهى إلى زواج . . لكنه حين أوى إلى فراشه عصر ذلك اليوم ، كان يمنى نفسه باللحظات السعيدة التى سيقضيها مع فتاته ، يتسامران ويضحكان . . حتى تحن الشفاه إلى الشفاه ، فيغوص العفاف إلى بطون الأقدام ، لتطفو القلوب النشوى فوق الرؤوس التى أسكرها اللهو ، وأطاح بها الاستهتار . .

وفى المساء ، التقيا فى إحدى حدائق السينما الصيفية ، وكانت تعرض فيلماً هزلياً ممتازاً ، أشفق النظارة على بطلته التى «نكبها» الدهر بعودة زوجها الذى حسبته قد مات ، بعد أن تزوجت من صديق له . . فحيرتها المفاضلة بين «زوجيها» !

ضحكت رئيفة ، وأطاحت برأسها إلى الوراء فى بساطة مرحة . . **أما هو فلم يضحك ، لأنه كان أبعد ما يكون عن الشاشة ، لا يرى إلا بشرة وجهها الناصعة . . ولا يحس إلا بذلك الإحساس الغريب الذى شمل كيانه كله ، حين تطاير شعرها المتماوج الطويل فلمس عنقه ، لمسة خفيفة لينة !**

وعند القطار ، افترقا فى ذلك المساء ، ليلتقيا فى أمسيات تالية عديدة ، لم يبخلا فيها بخلواتهما على مكان . وفى كل مرة كانت تقترح عليه أن يفترقا هكذا فى (كوبرى الليمون) ، «لئلا يراها أحد بصحبته» . . فكان هو يوافقها على الفور ، كى لا تتكرر مأساة

الوصول إلى المطرية ، والعودة فى القطار التالى إلى الزيتون .

. . وهو لا يدرى أنها قد تورطت يوم ذكرت «عين شمس» كما تورط هو ، رغبة منها فى إطالة الطريق ، وإفساح الفرصة للتعارف . . والتواعد على لقاء .

(٣)

. . وبدأ يحس ، مع مرور الأيام ، بالشوق يلهب كيانه . . الشوق إلى امتلاك هذه المخلوقة الناعمة ، التى تبعث الرجفة والنشوة فى بدنه كلما تلامسا ، عفواً ، أو عن قصد مستور . . وهو الذى ألف تلك اللمسات والخلوات من قبل ، فلم يعهد فى نفسه يوماً أدنى تردد أو إجفال .

. . وبدأت عيناها هى تسيلان رقة وحناناً ، ونظراتها تزداد ليونة وشروداً . . كان من الواضح أن عاطفة قوية قد قيدتهما ، فلم يعد هو يستطيع منها فراراً ، ولم يرد لها ضعفها منها فكاكا . . فآثر كل منهما - وقد لمس فى نفسه حائلا خفى على الآخر ، يباعد بينه وبين صاحبه - أن ينطوى على روحه يغالبها فى سكون .

وفى خلوة حالمة فى المعادى ، فى ذلك الكازينو المطل على النيل ، جلسا ذات أمسية متلاصقين ، صامتين ، يرقبان ماءه الأسمر العذب ينساب هكذا فى عروق الأجيال ، فى هدوء . . وسخاء . ومن بعيد ، حمل إليهما الهواء أصوات الصيادين وقد جلسوا فى

قاربهم يرددون برنتهم الفطرية الرخيمة أغنية « عبد الوهاب » القديمة العذبة :

امتى الزمان يسمح يا جميل
واسهر معاك على شط النيل

القمر طالل علينا
والعذول غاب عن عنينا

والدنيا كلها حاسدانا

والنسمة كانت حيرانة

والموج بيحكى حكاية
للشط ما لها نهاية

يا هل ترى يا زمانى
حاسهر مع الحلو تانى

واسهر معاك ولا فيش عزول
واسمع غناك والليل يطول

وانا والجميل قاعدين
سوا على شط النيل

. . ثم خفتت أصواتهم ، وابتعد قاربهم فى الظلام ، تاركاً العاشقين يصارعان فى قلبيهما الأمواج التى انحسرت عنها غمرة الخيال . .

. . وانحنى على خدها ، فأجفلت قليلا ، ولكنها لم تمانع . . ومضيا يتراشقان بالقبل ، حارة شهية ، حتى عادا إلى نفسيهما فغادرا المكان . .

وفى بيته ، ارتمى هو على الفراش مسهداً ، يتنازعه الحنين إليها . . والإشفاق من أن يدنس محرابها . . وفى الصباح ، كان قد اعتزم الابتعاد عن طريقهامهما كلفه الأمر !

وعندما وضع سماعة التليفون ، قبل أن يسمع ردها ، كان قد صارحها بحذره من التمادى فى العلاقات بينهما ، معتذراً عن الزواج بأنه . . ليس أهلاً لها !

وأحس براحة خفية ، فقد كان مخلصاً فى قوله !

(٤)

ومضت أيام ، خرجت بعدها «رئيفة» مع صديقة لها كانت تنوى السفر إلى الخارج ، للحاق بزوجها الذى أرسلته الحكومة فى بعثة دراسية ، كى تقضى معه شهراً فى أوربا قبل عودته . .

واقترحت عليها الصديقة أن يمرا على أحد مكاتب السياحة التى ازدحم بها شارع عبد الخالق ثروت ، فدخلاه . . وطلبت الزوجة بعض الاستعلامات من الموظف المختص . . ولكنه لم يعبأ بطلبها ، بل ظل يحدق فى زميلتها «رئيفة» !

. . تحولت إليها الصديقة لترى ما دهاه ، فرأتها هى الأخرى

تحدق فيه ، وابتسامة تتلاعب على شفتيها . . إنها تود أن تصارحه بأمر يهمه ، لكنها تسكت على مضض ، والخجل يمسح ابتسامتها !

واستدار رشدى بعد لحظة ليلبى طلب الزوجة المسافرة ، فلمحت هذه على وجهه . . حبات من العرق !

وحين خرج من مكتب السياحة بعد برهة ، أحس بألسنة الهواء تمتد نحوه لاذعة ساخرة !

(٥)

ومضى صاحبنا فى اليوم التالى إلى أحد محال الروائح العطرية فى شارع قصر النيل ، ليبتاع زجاجة من «البارفان» الذى تتعطر به فاتنته ، عله يعالج الشوق الذى أضناه . .

لكنه لم يكد يتقدم فى داخل المحل خطوة ، حتى توقف فى مكانه ، وكأن الأرض قد شلت قدميه . . فإن البائعة لم تكن غريبة عنه . .

إذن فهى ليست من وارثات (عين شمس) !

وهو . . ليس من مهندسى شركة المبانى !

وكان لقاؤهما التالى على مرأى ومسمع من المأذون والشهود !

(سبتمبر ١٩٤٠)

السراب

(قصة فى حوار)

(رأس البر) ، قبيل الغروب . . «اللسان» ممتد فى الماء منذ بعيد ، يتلقى من اليسار لطمات البحر ، ومن اليمين لشلات النيل . . حتى يبلغا آخره فيلتقيان !

والأمواج مقبلة تتدافع وتتوائب ، ثم تتكسر على الأحجار ، فتنثر رشاشها البارد على وجهين : «هى» و «هو» واقفان «على طرف اللسان» ، كأنما هو يوشك أن «يلفظهما» إلى الخضم !

بعد فترة سكون :

هى : (فى تهيب ، وبصرها إلى أسفل) : أما فرغت من تأملاتك . . لكى نعود ؟

هو : (وبصره إلى الأفق البعيد ، كالحالم) : هه ؟ . . نعود ؟ . . وفيم العجلة ؟

هى : الشمس على وشك المغيب . . ألم تقل إنك تخشى مرآها وهى تغرب ؟ ترى ما منبع هذه الخرافة ؟

هو : قلبى . . إنه يحدثنى بأن أجدادنا الفراعنة القدماء لم يكونوا مخطئين حين تشاءموا من التطلع نحو الغرب ، فولّوا وجوههم فى جميع فتوحاتهم نحو الشرق . . كان الغروب فى عرفهم نذيرا بالنهاية الأخيرة ومرادفا للفناء . . انظرى . . ألا ترين الشمس

وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة ، ووجهها محتقن ـ أشبه بعذراء تحتضر : رأسها ملقى على وسادة من السحاب الأحمر ، وأطرافها مسجاة على الأمواج ؟ . . ها هى ذى تغيض رويداً رويداً . . ها هى عذراء الوجود قد ماتت . . (كمن يحدث نفسه ، فى سخرية) : ثم يتحدث الناس عن «جمال الطبيعة» . هه . . إن هو إلا وهم من خيال الشعراء . .

هى : وبالأمس فقط كنت تتغنى به . . يا للبصر من مرآة خادعة ، تعكس الإحساسات قبل المرئيات . . إنك الليلة لا ترى الجمال ، لأن نفسك معتمة . دع عنك هذه الخواطر السوداء . (يرق صوتها) هلا اخترت غيرها للقائنا . . الأخير ؟

هو : (فى مرارة) : كأنما يهمك أن يكون الأخير أو لا يكون . . (يلمح فى عينيها نظرة تجيش لها نفسه . . فيستدير إليها ، ويقبض على ذراعيها بقوة) سعاد . . لماذا وضعتك الأقدار فى طريقى ، ما دامت تنوى أن تعود فتأخذك ؟ (وهو يخفف من قبضته ، ويرق صوته) ولكن . . أى حق لى فى أن أزجرك . . ؟ قلبى هو الأحق بالزجر . . فإنها غلطته . .

هى : (فى هدوء) : بودى لو أذكرك بهذا . . غداً ، حين تنسانى !

هو : كيف أنسى أحلامى الهائمة بين أجفانك ؟ دعينى أطيل النظر فى عينيك . ما لهما تهربان من عينى ، وأهدابهما تختلج ،

ككتاب يقلب الهواء العابث صفحاته ، أو شريط تتحرك صوره فى سرعة تخطف الأبصار ؟ . . أوصيهما أن يتمهلا ، كى أقرأ فيهما صحائف حبى ، وأتملى برؤاى الجميلة . أى نوع من المرايا حدقتاك ؟ منذ عرفتهما أحببت الظلام ، كى أراهما تلمعان لى وحدى ، فترتسم على صقالهما أوهامى السعيدة . كم من ليال قضيتها ساهراً فى شرفتى المطلة على البحر ، أتلقى هواءه الرطب على جبينى ، فى نشوة المحموم ، وأنصت لهمسه الحلو فى أذنى ، فأحس بمثل اصطفاق الأمواج فى رئتى ، وكأن قلبى طائر حبيس يرف بين قضبان صدرى ، يبغى الفرار ! ؟ . . وكم من ليال سهرت فيها أذرع السماء ببصرى ، وأرصد عينيك وهما تثقبان الظلام ، وتنيران أمامى الطريق !؟ . . سعاد . . محال أن يكون عمر هوانا ثلاثة أسابيع . لكأننى عرفتك منذ دهور . . عرفتك قبل أن ألقاك !

هى : (ترمى ببصرها إلى البحر ، فى شرود) . أكل هذا ، بسببى ؟

هو : أو تجهلين ؟ إنك أول امرأة تنسى غرورها ! (بعد لحظات ، فى صوت آتٍ من بعيد) . . كما كنت أول امرأة نسيت فضولها ! . . منذ لقائنا الأول توقعت أن تسأليني عن ماضى قلبى ، عن تلك التى كانت تقطنه قبلك ، لكنك لزمت الصمت . . وكان هذا كل ما أرجو . . كنت أشفق من أن تذكرينى بها فى البداية ، وتلجئينى إلى أن أفتح لك قلبى وهى ما زالت فيه . . فتتقابلان على

عتبته . . وأفقدكما معا . . ولكم أضنتنى حيرتى وأرهقنى ضميرى ، وأنا أهيىء نفسى لذلك الموقف الأليم ، لولا أن أنقذنى صمتك ، وتكفل بإيجاد الحل : أتاح لى الفرصة كى أتبين موقفى على مهل ، فلم ألبث أن أيقنت أنك قد ربحت المعركة ، وأفلحت فى إبعاد « ليلى » من قلبى . وهكذا ، عندما فتحته لك ، لم تكن هى فيه . كانت المسكينة قد تسللت منه تحت جنح الظلام وهى تكفكف دمعها . . (فى صوت خفيض) ولكن ، ها هو ذا إثمى قد حاق بى ، وحق علىّ التكفير !

هى : (كمن تخفى سرّاً) : لم يفت الأوان . عدنى أن تعود إليها ، فهى لابد تنتظرك . . إنها لا تعلم شيئاً !

هو : لا أكذبك : لن أستطيع . . بعد أن عرفت فى حبك حرارة الانفعال ، لن أطيق صقيع الحب الهادىء الذى أحببتها إياه . تريدين أن تعرفى مدى العاصفة التى أثرتها فى كيانى ؟ إذن فانظرى . . أترين هدوء النيل ؟ . . هكذا كنت . . وهياج البحر ؟ . . هكذا صرت . . (كمن يتنبه إلى نفسه) والآن حدثينى عن . . غريمى . . فلكم يشوقنى أن أعرفه . .

هى : (بعد فترة صمت) : مختار . . هوّن على نفسك . ما هكذا يكون . .

هو : (مقاطعاً ، فى تهكم مرير) : ما هكذا يكون لقاء المحبين ؟ نعم . . إنك محقة ، فاغفرى لى أننى أثقلت عليك (وهو

يتطلع إلى بعيد ، كمن يحدث نفسه) . . وإن يكن شفيعى أننى أتشبث بهنائى الغارب ، وأدفع عنه عدوان الأقدار ـ خصمى العنيد !ـ فالحرب بيننا سجال !

هى : (تلمع فى عينيها دمعتان) : كلا . لا تخطىء وتظلم الأقدار ، فالذنب ليس ذنبها . . بل ذنبى أنا . . أنا الجديرة بحقدك وبُغْضك . . أنا التى اعترضت طريقك ، عامدة . . ولكم كنت حمقاء . . (كمن تتهيأ لحديث طويل) مختار . . لقد كذبت عليك حين أخبرتك أن قريباً لى قد خطبنى من أبى أمس ، وأننى مقبلة على الزواج . كلا ، لم يحدث من ذلك شىء ، فإننى أنصرف الآن من حياتك بمحض رغبتى . . دعنى أعترف لك بالحقيقة كاملة . أعلم أننى سأولمك ، وسأدمى كبرياءك ، لكنك ستشفى من حبى حين تعلم كم أثمت فى حقك . . وفى حق «ليلى » . . إنك تجهل أننى أعرفها ، فكيف لو علمت أننا ألصق صديقتين . . ؟ . . منذ تعارفنا ، وتفتحت بصيرتنا على الحياة ، مضينا معاً ، نتسارر ونبحث عن الأحلام التى تراود أذهان الفتيات . لم تكن تلك الأحلام غير شتيت من الرؤى الزاهية والخيالات ، تحوم دائماً حول دنيا الرجال : القلعة الشائقة ذات الأسرار ، التى لم نكن قد اقتحمناها بعد ، والتى سبقتنى «ليلى» إليها حين قدر لها أن تلتقى بك ، فدخلتها معك . . وتركتنى بمفردى أواصل طوافى العقيم ! . . وبين حين وحين ، وكلما أرهقتها سعادتها معك ، كانت تلقانى كى تحدثنى عن

نعيم الحب ، وما يدور داخل أسوار دنياها الجديدة ! . . وذات يوم أرتنى صورتك . لم أعرك فى البداية أدنى اهتمام ، ولا أثارت الصورة فى نفسى نحوك أى إحساس خاص ، غير مضاعفة شعورى بالحياة الموحشة التى أحياها . . لولا أن تكاثرت أحاديث «ليلى» عنك ، عن عينيك اللتين كأنما تنطويان على ألم دفين . وعن نظراتك إليها ، ونجواك وهمساتك ، وحركاتك وسكناتك . . صارت تطلعنى على كل ما يدور بينكما ، ولا تخفى عنى شيئاً . . !

. . فبدأ يدب فى أعماقى شعور عجيب قاهر ، يدفعنى دفعاً إلى محاولة رؤيتك . شعور زعمت لنفسى فى البداية أنه فضول برىء ، لا يخفى أية نوايا مغرضة . . حتى أظهرت الشهور التالية مشاعرى سافرة أمامى ، فتبينت فيها ما كنت أخشاه ، ما كان يجتاح كيانى من شوق مدمر إلى أن أعرفك ، وأجرب معك سائر الانفعالات التى صارت ترهق خيالى ، حتى لكانت تغرينى أحياناً بأن أغافل «ليلى» فأتناول صورتك وأمضى أُمَنِّى نفسى بكل ما شاقنى فيك خلال أحاديثها الطويلة عنك . . وأحلم بأن تختصنى عيناك بنظراتهما الحزينة ، وتريق شفتاك فى سمعى همساتك الرقيقة ، وأنت تضغط على ذراعى بأناملك . .

وهكذا مضى زمن ، وأنا أعيش فى جنة من صنع أوهامى !

. . إلى أن حانت فرصتى المنشودة . علمت من «ليلى» أنك قادم كى تقضى شهراً هنا ، عقب جفاء عارض بينكما ، فعجلت

بالحضور مع أسرتى . . فى أثرك . . ورحت أتعقبك ، فى الصباح على شاطىء البحر ، وفى المساء بين مقاهى النيل ـ إذ كان من حظى أن المصيف صغير ، والملاهى فيه محدودة ـ فصرت ترانى أمامك أينما سرت ، وحول المائدة المجاورة حيثما جلست ، وصار كل همى أن ألفتك إلى نفسى ، وأبدو جميلة فى عينيك . . حتى سمعتك ذات يوم تهمس لشخص معك عن «هذه الحسناء ذات البيجاما الزرقاء» ، . . فأدركت أنك تعنينى ، وكدت أشهق من فرحتى . . وعندما خدمتنى المصادفة وعثرت على قريب لى يعرفك ، ثم جمعتنا فى الكازينو مائدة واحدة ، كانت المسافة بين قلبينا قد قربت . . ولم يعد يفصلنا غير عائق واحد : «ليلى» . . آه لو علمت المسكينة أنها هى التى ساقتنى إليك ، دون أن تشعر .

. . لكنى لم أتعب فى إخماد ضميرى : أوهمته أن الجفاء الذى بينك وبين «ليلى» عتيد أن يصرفك عنها إلى غيرها ، وأننى أولى بحبك من الأخريات . بل ذهبت إلى أبعد من ذلك . . إلى حد إقناعه بأننى إنما أدخل حياتك براً بك ، لكى أطرد الشجن من عينيك ، وأمنحك السعادة التى عجزت هى عن منحك إياها . . وصدقنى ضميرى ، أو تظاهر بتصديقى ، فلم يبق إلا ضميرك . . وكنت واثقة أن مجرد معرفتك بمدى صلتى بـ «ليلى» ، كفيلة بأن تجعلك تعرض عنى من البداية ، وتبعدنى عن طريقك ، بركلة من قلبك . . فلم أر بداً من أن أتسلل إلى حياتك فى ثيابى التنكرية . .

. . وأنت تعرف البقية : لم تنجح التجربة . . حين ظفرت بك ، أحسست بانفعال السائح إذ يضع قدمه فوق أرض جديدة ، يهزه الشوق إلى أن يجوبها ، ويدفعه الفضول إلى رؤية كل مافيها . . ثم . . ينتهى كل شىء !

وهكذا لم تمض علىَّ أيام حتى استعدت توازنى ، وأفقت من ترنح سكرتى ، فرأيت كم أضلنى قلبى ـ هذا النبى الكاذب ـ حين قادنى وراءه ، معصوبة العينين . . وإن كنت قد غنمت من رحلتى تذكاراً ثميناً ، منحتنى إياه الحياة وهى تفضى إلى بسرها . لن أنسى صوتها وهو يهمس لى فى فحيح مخيف : «ما من أمل فى الوجود يساوى ـ عند تحققه ـ نصف عناء الوصول إليه . . ولا من متعة تستحق ـ بعد بلوغها ـ حمى الشوق إليها . .» .

هو : (فى لهجة رثاء) : هنا تبدأ تعاستك . كان خير لك أن يبقى إيمانك بالسعادة ، فيشعل فيك حرارة الحياة ، من أن تفقدى هذا الإيمان فيغمر حياتك الصقيع . . ولخير لك أن تظل آمالك دائماً تسبقك ، لا تبلغينها . . من أن تبلغيها فتتكشف لك عن هباء ! . . كما حدث يوماً لى (يبدو الشجن فى عينيه ، ثم يتمالك نفسه) . . والآن دعينى أنوب عنك فأكمل القصة ، فلربما يصعب عليك مواجهتى بالبقية : لقد مضيت تجترّين أحلامك ، وخيالك يصور لك اللوحة رائعة من بعيد ، فلما فتحت عليها عينيك ، عن قرب ، لم ترى غير لطخ من الألوان ـ لا معنى لها ـ هى دون ما عشت شهوراً

تتخيلين . . فانطفأ حبك لى ، أصبت بخيبة أمل . . والقلعة التى طالما حمت حولها ، وحلمت بأن تغنميها ، بدت لك ـ حين دخلتها ـ أطلالاً خاوية ، مكسوة بطلاء براق !

هى : ككل أمانينا!

هو : نعم ، فإننى لم أكن فى دنياك غير وهم كبير ! (وهو يمد بصره إلى أفق سحيق) . . أو لمعة سراب !

(سبتمبر ١٩٤٤)

obeikandl.com

قبض الريح !

(١)

فى ركن من مقهى الـ «تريانو» ، وإلى جوار نافذة مفتوحة على الميدان المشرف على البحر ، رأيته ساعة الأصيل جالساً إلى إحدى الموائد ، وأمامه قدح من الشاى . . لم يمسسه !

لم يكن جو المكان هادئاً يغرى بتأمل طويل . . فقد كانت الجلبة شديدة فى الداخل ، والميدان فى الخارج زاخراً بالحياة . . كالقلب النابض ، فيه تتلاقى ومنه تتفرق جموع الساعين إلى مغانى الإسكندرية فى يوم العيد . . وبرغم ذلك فقد بدا على «خيرى بك» أنه غير ملق بالاً إلى كل ما حوله من ضجيج ، وكأن نفسه تنعم بسكينة محببة ، مبعثها الاستغراق فى ذكرى . . أو نجوى . . أو حنين !

وآثرت أن أحترم عزلته فأدعه لنفسه ، حتى يفيق . . مكتفياً خلال ذلك بمراقبته من بعيد . كان المشيب مهيباً فى طلعته وجلسته ، كأروع ما تكون المهابة والجلال . . وعلى شفتيه يرف شبح ابتسامة تائهة . وفى نظرات عينيه رقة لم آلفها ، وليونة طارئة . . حرت فى تعليلها !

. . حتى أفاق من سرحته بعد حين ، وكنت قد فرغت من تناول الشاى ، فسرت بين الموائد أسعى إليه . .

***

واقترح علىّ أن نفر من الزحام والضجيج ـ بعد أن تنبه إليهما ـ فخرجنا إلى طريق الكورنيش . .

كان الغروب جميلا يرهف الإحساس ، والهواء صافياً نديأً يرطب الوجوه . . وكل شىء يذكر بأحلى أمسيات «نوفمبر» فى الثغر ، حين يجود الخريف بأنفاسه الأخيرة فتشيع روائحه فى الجو ، ريانة بأنفاس البحر ، ظمآنة لأنفاس الزهر . . وتنتشر باقات «الكريزنتيم» بألوانها الزاهية : فى أيدى الباعة ، وواجهات الحوانيت ، ونوافذ المنازل ، وعلى موائد المقاهى والحانات . . وحيثما طاف البصر أو استقر .

وكانت الإسكندرية قد خرجت إلى الطرقات ، جذلة بالعيد ، الذى استرد بهجته القديمة . . فلم يعد مجرد تاريخ يقرأ فى التقاويم ، وتعطل له الأعمال . . وإنما لاح على وجوه المارة ، وفى عيون الأطفال .

وسرنا برهة صامتين ، وقد تجنبت مبادأته بالكلام ، حين لمحت على وجهه تعبيراً تعودته منه كلما أغرته فورة الماضى فى رأسه بأن يفضى إلىّ بذات نفسه . .

وصدق ظنى . . إذ لم نكد نبتعد عن قلب المدينة ، ويخلو

الكورنيش إلا من نفر قليل ، حتى جاءنى صوته هادئاً يقول :

« ليتك بكرت فى الحضور قليلا . . إذن لرأيت ابنى « منير » كما رأيته أنا ، يعبر الميدان وذراعه فى ذراع فتاة . . ألا ما أسرع ما تمر الأيام ، بله الأجيال . . وما أسرع ما بدأ الفتى يبحث عن الحب ، ويخلى مكان الصدارة من قلبه للحسان . . ولكم أخشى على هذا القلب الغضّ من عبثهن . . إنها تجربته الأولى فيما أحسب . وصدقنى إننى حين لمحته ، شخت فى عين نفسى ـ فى لحظة واحدة ـ سنوات . . وقدرت فجأة بُعد الشقة ، وعمق الهوة ، بينى وبين ماضىّ السحيق . . وتمثل لخاطرى شبابى مُعاداً من جديد . . فدهمنى طيف الفتاة الأولى التى فضّت غلاف قلبى البكر . . وعبثت به . . ثم نبذته . .

« وإنى لأقرأ الآن فيه ، وفى رأسى معاً ، قصة حبى الأول . . »

ولان صوته ، كما لانت نظراته من قبل ، واتخذ سمة البحر الساجى ، الذى لم تعد تعكره الأمواج :

(٢)

« كان ذلك فى فجر شبابى الباكر البعيد ، يوم أن كنت فتى يافعاً لم أكمل دراستى بعد . وكنت ووالدتى قد انتقلنا حديثاً إلى الإسكندرية ، واخترنا لسكننا ـ فى أحد شوارع (زيزينيا) الهادئة ـ شقة فى عمارة جميلة ، مازلت أذكر لون طلائها الأحمر ، ونوافذها

العالية الدكناء ، ومدخلها الرخامى الفسيح الذى يتضاءل إلى جانبه مدخل العمارة العتيقة التى كنا نقطنها قبلاً فى (جرجا) . .

«لم تكن الصورة التى فى ذهنى يومئذ عن الحب والنساء ، أكثر من خليط مبهم من التصورات ، ساهم فى رسمها خيالى الجامح . . وهمسات زملائى من التلاميذ الكبار . . ثم ذلك الضرب من البلبلة «العذبة المرة » التى تداهم أفكارنا بشدة وتنتهبنا فى تلك السن ، حين تتمطى قلوبنا فى صدورنا وهى تستيقظ كى تؤرق لياليا ، وتلهب فى نفوسنا أقوى مشاعر القلق . . والحيرة . . وانتظار المجهول . .

« المجهول الذى لم يلبث أن وعدنى به ، وقادنى عبره . . طيف « إحسان » !

«لا أذكر أين ولا كيف رأيتها أول مرة ـ أو حتى عاشر مرة ـ فقد كنت فى البداية أراها كثيراً ، تقريباً كل يوم ، إما صاعدة إلى مسكنها فى الطابق العلوى من عمارتنا ، أو هابطة منه . . وأحسب أننى لابد قد صادفتها مرة أو مرتين مع أمها عندنا فى البيت ، فكنت أخضع لواجب مصافحتها تأدباً واضطراراً . . ثم أبادر بالخروج إلى الشرفة المطلة على الشارع الرئيسى ، لأملأ رئتى بهواء نوفمبر الندى ، وأقف أرقب الطريق الزاخر بالفتيات الجميلات وهن عائدات من المدارس بأرديتهن المتماثلة ، البيضاء أو الزرقاء ، وعلى وجوههن ملاحة الصبا ونضارة الشباب المضطرم الذى يلون وجناتهن . . وقد تناثر شعرهن

على أكتافهن فى استرسال عذب ، نصفه من فعل عبث الهواء ، ونصفه من فعل عبثهن فى المدرسة . .

« فكان يتولانى وأنا أرقبهن شعور غريب . . كنت أحس بحيرة خفية ، وقلق غامض . . وكأننى مخلوق غريب عن هذه الدنيا ، مقيد فى قفص ، يمر أمامى موكب الحياة وأنا قانع بأن أستعرضه . . أو أدعه يتفرج علىّ فى وقفتى تلك . . وأنا تائه النظرات ، حالم الشفتين بشىء لم أكن قد تبينته بالضبط . .

« واستدعتنى أمى ذات يوم من وقفتى تلك لأجلس مع « الضيوف » . . فمضيت إلى الغرفة كاسف البال ، ضيق الصدر ، وفى نيتى أن أتحين أقرب فرصة للفرار . وجاءت جلستى فى مواجهة « إحسان » . . وبرغمى حانت منى إليها لفتة عابرة ، فإذا بى أفاجىء نظراتها مصوبة إلىّ . . نعم « مصوبة » . . فقد كانت لحظتها تقدح بفتنة غريبة لم ألمحها فيها من قبل . .

«وخجلت . . فأرخيت عينى فى اضطراب ، متلفتاً إلى . . لا شىء . ثم عدت ببصرى إليها بعد حين ، عن غير قصد ، فإذا به يصطدم فى عينيها بنفس النظرة التى كانت تتفحصنى ما تزال . .

« ولا أنسى الارتباك الذى تولانى إذ ذاك . . أحسست أن شعاع نظرتها الفاحصة ينفذ إلى أحشائى ، ويجردنى من كل ما يستر كيانى ومشاعرى . . ووجدتنى أسائل نفسى ، كمن أزيح عن عينيه فجأة الحجاب : « كيف لم ألتفت إليها من قبل ؟ » . . وانتهزت أول فرصة

انشغلت فيها « إحسان » بالحديث مع أمى ، فخالستها النظر ، لأعرف جواب تساؤلى . .

«ولحظتها فقط أدركت السبب . . حين طالعت عيناى فى وجهها ، وفى جسدها العارم الطويل ، أن سنها تدور حول العشرين . . وأنها تكبرنى بسنوات . .

« وأكثرت « إحسان » من زيارتنا بعد ذلك . . كانت تتعلل بشتى المعاذير كى تمر علينا ، تقريباً كل يوم ، ولو فى إلمامة خاطفة ، فتطلب من أمى شيئاً أو ترد شيئاً كانت قد أخذته . . ولاحظت أنها فى كل مرة كانت تزيد من حرارة تحيتها لى ، وتتلمس أوهى سبب لتبادلنى حديثاً قصيراً عن المدرسة ، والدروس ، ومدى تقدمى فى اللغة الفرنسية التى كانت هى تتقنها كإحدى بناتها . ثم ما لبثت أحاديثها وأسئلتها أن تطورت ، وتنوعت ، ووجدت لها ميداناً ثانياً فى قصة للكاتب الفرنسى « فيكتور مرجريت » أعطتنيها لأقرأها ، على أن تمتحننى فى فصل منها كل مرة ، بدعوى أن ذلك « يقوينى فى اللغة »

وصارت مع الأيام تجلس إلى جانبى ، فتلفح أنفاسها وجهى ، ويطغى عطرها على حسى . . فأضطرب ، وأنصرف لحظة عن الكتاب . . وعندئذ تسألنى ضاحكة : « هيه . . خيرى . . فى أى واد أنت ؟» . . فكنت أخفض وجهى إلى الكتاب ، ولا أجيب . .

«ولم أتبين مدى التبدل الذى أصابنى ، بالتدريج ، إلا بعد زمن . . يوم أن كنت أقلب صفحات ذلك الكتاب الذى كانت

بعض فصوله الجديدة علىّ تثير فىّ الاضطراب . . فصادفت كلمة استعصى معناها على فهمى ، فسألتها عنها . . وكانت أمى قد خرجت من الغرفة لبعض شأنها . .

«رباه . . كيف أنسى تلك اللحظات . . ضحكت إحسان ضحكتها العابثة ـ التى كنت أسمع جرسها العذب يدغدغ حواسى ـ ثم اتخذت عيناها سمة غريبة ، لم أكن قد رأيتها من قبل ، وأرخت أجفانها قليلا ، وهى تقترب منى بجسدها الرخص ، وأنفاسها تلفح وجهى ، وعطرها يطغى على حسى . . ومالت بفمها علىّ وهى تهمس فى أذنى : « أو ما تخجل من نفسك ، ومن جهلك الفاضح باللغة ؟ . . أو ما سمعت قط بـ « الحب العذرى » ؟ أم أنك فى الحقيقة لا تعرف من ألوان الحب سواه ؟» قالتها واستردت جسدها الرخص من جوارى فى حركة ضجر مفاجئة ، فلمست كتفى ـ لأول مرة ! ـ صدراً ليناً . . وانتابنى دوار . . وسرت فى كيانى قشعريرة حمى مريرة عذبة ، سلبتنى ليلتها النعاس . .

« وليتها رحمتنى بعد ذلك . . بل إنها دأبت على « تعذيبى » . . وضاعف من وطأة فتنتها أننى كنت ، برغم خجلى ، مكابراً ـ نفس المكابرة التى تعرفها فىّ اليوم ! ـ فكنت آنف من الفرار ، وتهيب بى سذاجة رجولتى الباكرة أن أصمد للفتاة ، أو أسقط صريعاً فى

الميدان . . وهكذا كان يستمر الجذب والشد ، على حساب أعصابى التى أشرفت على التلف . .

« وفى آخر مرة ، وكان ذلك فى مساء يوم قارس البرد ، كنت فى غرفتى أحاول عبثاً أن أفهم حرفاً من حساب اللوغاريتمات . وسمعت صوتها تسامر أمى فى الردهة ، فنازعتنى نفسى إليها ، وتململت فى مقعدى أبغى الخروج إليها . . لولا أن لفتة عابرة إلى التقويم الذى أمامى ذكرتنى بامتحان نصف السنة المقترب ، وردتنى إلى مقعدى محطم الأعصاب ، وقد راعنى مصيرى . . وأدركت أننى موشك على الضياع ، فخنقتنى غصتى ، وانكفأت بوجهى على مكتبى مغمض العينين ، أغالب ضعفى . .

«ويبدو أن تأثرى كان قد أضنانى ، فإننى أغفيت ـ كالطفل أتعبه البكاء ، فنام بين ذراعى أمه ـ حتى نبهنى من إغفاءتى عبير نفاذ مألوف ، يملأ الهواء حولى وينعش أنفاسى . . ففتحت عينى ، نشوان ظمآن ، وإذا « إحسان » قائمة منى على قيد خطوة ، متكئة على الباب المغلق وراءها ، ويداها خلف ظهرها ، وثوبها يكشف عن أعلى صدر ناصع ساخن ـ أو هكذا خلته من بعيد ! ـ ثم إذا بعينى المحمومتين تطالعان فى عينيها معانى لا حصر لها ، مشتقة كلها من الظمأ . . والجوع !

«ولم يطل الموقف غير ثوان ، ريثما أيقنت « إحسان » ـ على هدى غريزتها ـ إننى ذاهل عن كل إقدام ، وأن جمودى يغلبنى ، فتركت

الباب إلى حيث المدفأة فى ركن من الغرفة ، تتلظى فيها النيران . . وهناك وقفت مطرقة ، تتأمل الجمر فى النار ، وظهرها إلىّ ، وصمتها قد ثقل علىّ ، حتى لم أعد أطيق . . فمشيت إليها أسترق الخطى ، وفى نفسى صدى ما يبلبل فكرها . . ووقفت منها بحيث لمس شعرها أنفى فأضرم اللهيب فى أعصابى ، وملأ عطرها خياشيمى . . واختلج جسدها فى انتظار قبضة ذراعى ، وأحسست بكيانى يزلزله إعصار من الانفعال . . !

« . . وإنى لأناضل جمودى ، وإذا أعصابها تخذلها ، تحت وطأة الترقب الذى كان فيما يبدو قد طال . . فتحركت واستدارت إلىّ ، ثم انفلتت من الغرفة وفى عينيها نظرة « احتقار » . . لن أنساها .

«وليلتها لم أنم . . ظللت فى فراشى أتقلب وأتلظى على مثل السعير ، وبدنها اللدن يتثنى فى خيالى ، ويتراقص أمام ناظرى . . وصدرها الناهد يهبط على صدرى . . وأنفاسها الساخنة تحرق وجهى وتلهب وجنتى ، فأحس منها بجفاف فى حلقى ، وظمأ موجع إلى ذوب فمها الريان . .

« . . حتى أدركنى الصباح مضنى من السهاد ، خائر القوى مبهور الأنفاس . . ولم يلبث الإجهاد أن أسلمنى للنعاس ! !

***

«ولم أعد أرى « إحسان » فى البيت ، فقد انقطعت عن زيارتنا . . وعبثاً حاولت أن ألقاها . . وفى المرات القليلة التى

صادفتها فيها ، فى الأسابيع التالية ، صاعدة إلى مسكنها أو هابطة منه ، كانت تتحاشانى وتفلت منى . . فكان مجرد تهالك بصرى عليها ، ولو فى لمحة خاطفة ، يذكى حنينى فى دمى فيعاودنى طيف القبلة الموءودة ، ملحاً على خيالى ، مؤرقاً ليالىَ . . وأعاود بدورى إهمالى لدروسى ، مستمرئاً النوم المبكر ، لعل النعاس ينتشلنى من وعيى فتراود رؤاها أحلامى . .

«وليت القدر ترفق بأعصابى ولم يمعن فى سخريته ، فأعفانى من اللقاء المرير الذى كان بسبيل تهيئته . وياله من لقاء ! . . إننى ما أزال أذكره وكأنه قد حدث بالأمس ، فإن الصدمة كانت أعنف من أن يحتملها قلبى الفتى : كنت أقصد منزل زميل لى ذات ليلة ، لأقترض منه كراسة أنقل عنها ما فاتنى من دروس . وكان البرد ليلتها شديداً يهرأ العظام ، فسلكت طريقاً مختصراً عبر شارع ضيق لم يكن قد عبّد ، فكان المرور فيه قليلا . . وبينما أنا أغذ السير ، ويداى فى جيبى بنطلونى ، وأسنانى تصطك . . حمل الهواء إلى أنفى الرائحة المألوفة : رائحة العطر الذى تتضمخ به « إحسان » . . فجمدت فى مكانى ، ودار بصرى حوالى ، ينشد طيفها . . حتى وقع عليه خلف جذع غليظ لإحدى الأشجار . . ولكنها لم تكن تعانى كثيراً من الوحدة ، أو البرد ، فقد كانت تؤنسها وتدفئها أحضان رجل ، استجاب لنداء شفتيها . . ولم يكن غريمى غير « جار » آخر لى ولإحسان ، كان يقطن من عمارتنا طابقها الأسفل . .

«وأحسست بالدموع التى طالما ناضلتها ، تنهمر بغزارة من عينى . . وأسلمت نفسى لأسى موجع وأنا أعدو عائداً أدراجى إلى البيت ، ودمى يلسع جسدى ويخزنى كالإبر . . ووجدتنى أكمن فى انتظارها عند الباب ، خلف أحد الأعمدة القريبة ، غير عابىء أو شاعر بالبرد . . حتى رأيتها تدلف إلى الداخل ، ثم تصعد الدرج . . فعاقنى الانفعال لحظات ، وأجفلت . . لكنى لم ألبث أن تمالكت نفسى ، فصعدت خلفها أعدو ، ودقات قلبى تردد مع وقع أقدامى أصواتاً تصم أذنى ، وتصرخ فى سمعى بشدة : « طفل . . طفل . . طفل » . . حتى بلغت بابها ، وكانت قد دخلت وأوصدته ، فنقرت عليه بأصابعى ، نقرة . . ثم أخرى . . ووقفت ألهث وأرتجف ، وأنا أمنى نفسى بأنى سأختطفها بين ذراعى وأضمها إلى صدرى بقوة ، حتى أحطم ضلوعها أو تصرخ وتستغيث . . بينا تروح شفتاى تتلمسان شفتيها ، وتجريان على رقبتها . . وما بين نهديها . . وتلهبان عنقها وكتفيها و و . .

« وفتح الباب . . وبرزت منه « إحسان » . .

« وأحسبك تقدر ما حدث : فقد جبنت بمجرد أن رأيتها أمامى ، بجسدها العارم الطويل ، تسألنى عن طلبتى ببرود . . دون أن تكلف نفسها حتى عناء الاستغراب . . وعبثاً ناضلت جمودى الغلاب . . حتى أحسست أنى أوشك أن أبكى ، وأنا أزدرد لعابى بصعوبة ، وأتضاءل تحت وقر نظرتها الهازئة . . وكان تأثرى قد

تفاقم ، والدموع فى طريقها إلى عينى ، فأدرت وجهى منسحقاً . . واندفعت أهبط السلم وانا ألهث ، وجرْس ضحكتها الساخرة يلاحقنى ويصم أذنى ، ويردد مع دقات قلبى ووقع أقدامى أصواتاً تصرخ فى سمعى بشدة : « طفل . . طفل . . طفل »

(٣)

وسكت خيرى بك ، كأنما ليلتقط أنفاسه مع الفتى اللاهث الذى كأنه فى فجر الشباب ، ثم استطرد وهو يرمى ببصره إلى البحر الذى انعكست عليه ظلال من السحاب الأحمر كالدم ، الذى كان يلطخ الأفق :

« . . ومضت أعوام ، وعرفت غير « إحسان » ، وذقت طعم القبلة من أعذب الشفاه . . ثم تزوجت منذ دهر طويل . . ولكنى برغم ذلك لم أنس شوقى إلى طعم تلك القبلة الموءودة التى « لم » أقطفها من شفتيها . . وبقى طيفها زمناً يشتعل فى حسى دائماً كالجمرة ، ويطفىء نشوة كل قبلة أخرى . . ويلح على خيالى . . ويراود أحلامى . . فأفتح فى منامى ذراعى لأقبض على بدنها الرخص وأنهب شفتيها . . فإذا بذراعى لا ترتدان إلىّ إلاّ بالحسرة ، وإذا بى لا أقبض إلا على . . هواء ! »

***

. . واسترد الكهل بصره من البحر الذى انطفأت فيه الظلال ،

ومن الأفق المتماوج برقع من السحاب الأغبر الداكن . . ثم تمتم ، بصوت كأنه آت من بعيد :

« . . ومـا كنت قد تبينت يومهـا ـ كما أتبـين الآن ـ أن نشـوة الإنسان أو شقوته ، ليست غير أطياف أوهام . . تنبع من سراب صحراء !!» .

(ديسمبر ١٩٤٣)

obeikandl.com

خـــبز الهـوان

لماذا اختار لى القدر هذا الدور البغيض : دور « الجلاد » لثلاثة قلوب ، كانت كلها فى قمة الهناء ، أبهج ما تكون إقبالا على الدنيا ، وشغفاً بالحياة ؟

مساء الأحد الماضى ، بعد عودتى من الأوبرا ـ حيث رأيتها فى مقصورة قريبة ـ وجدتنى أكتب إليها هذا الخطاب :

مديحة . .

أحسب أنـك حين فضضت هذا الخـطاب ، ووثب بصرك إلى ذيله ، لقراءة التوقيع ، قد تولتك دهشة وحيرة ، ووقفت عند اسمى لحظة تتساءلين : لماذا أكتب إليك ، أنا الذى لم تكن لك بى ـ فى يوم من الأيام ـ أكثر من معرفة سطحية ، عن طريق صديق مشترك . . ؟

« . . فكم بالأحـرى يكون تساؤلك لو علمت أننى بدورى لم أتوقع شيئاً كهذا ، وأنه لو كان أحد قدتنبأ لى ، منذ ساعات فقط ، بأننى سأقضى جانباً من الليل ساهراً فى غرفتى ، جالساً هكذا وراء مكتب صغير ، كى ألقاك عبر هذه السطور ، لكنت رميته بالخبل ، فإن فكرة الكتابة إليك كانت أبعد الأفكار عن خاطرى . . إلى أن

رأيتك الليلة فى الأوبرا ـ فى موقف تعلمين وأعلم كم هو أليم ! ـ فإذا بانتباهى ينشغل عن متابعة الرواية التى أمامى ، بالتفكير فى رواية أخرى : كنت أنت بطلتها ، وكنت أنا ـ وهذا ما لا تعلمين ـ المحرك لبقية أبطالها من وراء الستار . . !

«الستار الذى آن له أن يرتفع ، كى أكشف لك عن الدور الذى لعبته فى حياتك ، والذى عنيت بإبقائه طى الكتمان حتى الآن ، طوال عامين ، ربما لأنى وجدت لذة خاصة ـ قد تكون شريرة ـ فى أن يظل لغز ما أصابك قائماً فى ذهنك بعير حل ، فتطول حيرتك وجهلك ، ويضنيك البحث عن تفسير لما حدث !

«وما كنت لأغير موقفى وأطلعك على الحقيقة ، لولا أن ما شهدته الليلة قد أثار فى نفسى كامن عطفها ورثائها ، حتى لقد رأيت أخيراً أن أكون كريماً معك ، أنت التى لم تكونى كريمة مع أحد ، ولا حتى مع نفسك !

«ولكن . . ما هكذا تكون البداية » !

***

« منذ عامين ، وكان ذلك فى أوائل ديسمبر على ما أذكر ، وصلت إلى بلدة فى الصعيد كى أترافع فى إحدى القضايا ، على أن أعود بقطار المساء . وانفضت الجلسة مبكراً ، فخرجت مع زميل قديم نذرع شوارع البلدة ، مستمتعين بشمس الضحى ، ونتذاكر أيام الدراسة الحلوة . . حتى حان وقت الغداء فألح علىّ صديقى أن

أمضى معه لنتناوله فى منزله . . ثم جلسنا فى الشرفة نهضم الطعام بالسمر : تحدثنا فى المهنة ، والسياسة ، والجو . . وكل شىء ، إلا المرأة والحب . . فإن مناسبة ما لم تنعطف بنا إلى هذا الموضوع . . حتى انصرفنا ، هو إلى مكتبه وأنا إلى النادى القريب ، لأقضى الساعات الباقية على موعد السفر . .

«وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، فكانت هذه التفصيلات تضيع فى غمار التوافه العادية التى تتكرر كل يوم ، لولا أن القدر ـ الموكل بتسييرنا كالدمى ، بواسطة خيوط فى يده ـ كان فيما يبدو يؤلف وقتئذ إحدى مسرحياته ، ويبحث عن أبطال لها . ولا بد أنه رآنى لحظتها ، فخطر له أنى قد أصلح للدور المطلوب ، وراقه أن يسنده إلىّ ، فدبّر أن أنشغل فى مكتبة النادى بكتاب شائق أنسانى نفسى . . حتى فاتنى القطار . .

« . . وصار حتماً علىّ أن أبقى فى البلدة يوماً آخر ، فقبلت دعوة صديقى للمبيت عنده . وإنى لأتبين الآن أن أفدح النتائج رهينة فى الغالب بأتفه الأسباب والمصادفات . . فقد كانت الأمسية الطويلة كافية لأن نطرق الموضوع الوحيد الذى لم يجىء دوره بعد الظهر ، وهو موضوع المرأة . . والحب !

« ما الذى ساقنا إليه فى المساء ؟ . . لا أذكر . . ربما كنت قد استشعرت الوحشة فى معيشة صديقى وحيداً أعزب فى ذلك البلد النائى ، فسألته : ألا يفكر فى الزواج ؟

«وانطلق يحدثنى جذلاً عن فتاته : خمسة أعوام مضت وهما يتساقيان كؤوس الهوى مترعة ، منذ عرفها وهو بعد طالب ، إلى أن نال الليسانس واشتغل محامياً ، ثم سافر ليمارس المهنة فى بلدته تلك بالصعيد . .

« . . وكم بكت الفتاة وهى تودعه . . وكم تبكى وهى تودعه بعد كل إجازة يقضيها فى مصر . . وما أحرّ العاطفة التى تفيض من خطاباتها له ، التى تعد بالعشرات . .

« كان يتكلم فخوراً بمن ولاّها على قلبه ، وأعدتها أحلامه لعرش ثان : عرش بيته ، الذى سينصّبها عليه قريباً ، عندما تسمح الظروف . .

« . . وكأنما أعياه وصفها ، أو خيل إليه أنه مهما وصف فلن يوفيها حقها ، فقام إلى الدولاب وأخرج منه . . لا صورة واحدة ، وإنما « ألبوماً » من الصور . .

«ولم تكن الفتاة إلا أنت . .

«أنت التى كنت ـ طوال الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة ـ أراك فى مصر دائماً مع ابن عمى « فؤاد » ، وأعلم مدى علاقته بك . .

«وهكذا بدت الخديعة سافرة أمام عينى . . لقد كنت كالقطط الشريرة ، تعملين « بروحين » . . واعتنقت شريعة سمحاء : الشرك فى الحب . . فاستبحت لنفسك ـ فى وقت معاً ـ عواطف رجلين ، خصصت البعيد منهما بحبك الطاهر ، وخصصت القريب

بحبك الفاجر . . وأفلحت فى أن تضرمى جذوة العاطفة فى كيانهما بوقود واحد : رضاب شفتيك . . أَبَيْتِهِ على الأول فألهبه الحرمان ، وأَبَحْتِهِ للثانى فألهبه الإدمان !

«وهكذا بقى الاثنان فى الأسر !

«بقيا طويلا ، وكل منهما يحسب أنه أسيرك الأوحد ، وأن ابتسامتك وعبوسك ، وغضبك ورضاك ، وقف عليه . . فيغبط نفسه على أنه قد انفرد بهذا «الشرف» من دون الناس !

«يا للسخرية ! كيف طاوعتك نفسك ففعلت بهما هذا ؟ . . لو أنك ذقت ، ولو مرة فى حياتك ، طعم الألم النفسانى المرير . . أو لو حتى شاهدته على قسمات وجهيهما وأنا أسقى كلا منهما الحقيقة المرة ، على جرعات ـ خوف أن تقتله الصدمة ! ـ لكنت قد ترفقت بهما ، ولاخترت لضحيتيك غير هذا العقاب !

« لقد شهدت منذ أيام تنفيذ حكم الجلد على تاجر جشع ، وأُقسم أن وقع السياط على جسده كان أخف من وقع الحقيقة فى نفسى« حشمت » و « فؤاد » ، وإن اختلفت عندهما قوة الاحتمال : فلقد خذلت الأول أعصابه حتى كادت الدموع أن تطفر من عينيه ، لولا أنه استنجد برجولته ! وبرغم ذلك فإنى أفقت من النعاس فى تلك الليلة ، قبيل الفجر ، على صوته ينشج بالبكاء فى نومه ، وهو متشبث بكتفى كالأطفال !

« أما ابن عمى ـ فؤاد ـ فقد كان أكثر تجلداً ، أمامى على الأقل ، فأخفى أساه فى ضحكة تمثيلية ، وهو يزعم أنه لم يكن جاداً فى علاقته معك ، وما فكر قط فى الزواج منك !

«وحين حضر « حشمت » إلى مصر بعد أسبوعين ، عرفته بغريمه ! ولست فى حاجة إلى أن أصف لك لون الابتسامة الواهنة التى ارتسمت على زاوية فم كل منهما ، وهو يصافح الآخر !

« . . كما أنى لست فى حاجة إلى الإطالة ، فإنك تعرفين بقية القصة أكثر منى ، وتذكرين أنه لم تمض أشهر بعد أن قطع التعسان كل صلة لهما بك ـ فى وقت واحد وبلا إيضاح ! ـ حتى نشرت الصحف نبأ زواجك !

« . . فقد كان فى جعبتك دائماً « احتياطى » من الرجال. وفى هذه المرة كان الصيد دسماً ، فإن « شكرى بك » كان من رجال المجتمع والمال . . !

« . . لكن عدالة السماء لم تشرع عبثاً يا مديحة . . وكم يفتنّ القدر فى نسج خيوط العقاب أو الثواب ! . . لاتحسبى أنى شامت ، وإنما هو الرثاء الذى فاض من قلبى ، برغمى ، حين رأيتك الليلة فى مقصورتك بالأوبرا منزوية كالمنبوذة ، وزوجك منشغل عنك ـ أمام الملأ وأمام عينيك ـ بصديقته « نعمات » التى أصبحت علاقته بها حديث الناس ، والتى لم يجد غضاضة فى أن يجلسها معك . . !

« لكم كان الموقف أليماً . . لا تمارى يا مديحة ، فإنك امرأة ، تهون عليك دنياك وآخرتك ، ولا يهون كبرياء أنوثتك . . وتفرطين فى كل شىء ، لكى تنفردى بقلب الرجل الذى تحبين !

***

« لكن هيهات . . فإن شريعتك السمحاء قد عمّت ، وكنت من ضحاياها ، إذ اعتنقها زوجك . . الذى سرعان ما سئمك ، فإذا هو من المشركين فى الحب . . وإذا هو يكيل لك بنفس الكيل الذى به كنت تكيلين ! . . وبعد أن كنت الحاكمة المطلقة على قلبين ، صرت الرعية المظلومة من حاكمها ، يسومها الخسف والهوان ! . . وأى هوان وأى إذلال أشد وطأة من أن يجمع زوج بين حليلته وخليلته فى مكان ؟

« أعلم أنى بهذا المس من نفسك عصباً حساساً . . ولكن شفيعى أنك قد أتلفت نفسين . . إنهما الآن صديقان ، جمع بينهما حبك ، ثم خديعتك ، ويجمع بينهما الآن الاشتراك فى بغضك ! وكم كنت أود أن أقول أيضاً إنهما سعيدان ، وإن جراح قلبيهما قد اندملت ، فنسياك . . لولا أننى لا أريد أن أكذب ، فإن البغض فى ذاته دليل قائم على أنهما ما يزالان يذكران !

«وها أنت ذى ترين أن لعنتهما قد حلت بك ، وأن العقاب جاء وشيكاً . . فإن القدر قد أصدر حكمه عليك بالإدانة ، وسطر حيثياته بخطوط بارزة ترينها ـ لو نظرت إلى المرآة ـ واضحة على

جبينك ، كما رأيتها أنا الليلة حين انتهى التمثيل وأضيئت الأنوار !

***

«مديحة . .

« أراك تقرئين هذه السطور والدموع فى عينيك . . فدعيها تنهمر . اسفحيها غزيرة ، ما طاوعتك مآقيك ، لعلها تطهر قلبك من أدران الماضى ، وتغسل أشجانك . . فتجدين بعض العزاء !

«ولاتنسى أن تستمطرى الرحمة من السماء ، عساها أن ترفع عنك المذلة ، وتعفيك من خبز الهوان . . فإنها رفيقة ، ولن تضنّ بالغفران !

(يونيه ١٩٤٤)

أزهـار .. بيضـاء

يحتمل قلبى كل شىء ، إلا أن يرى حسناء شابة ترتدى السواد ، وفى عينيها ذلك الإعياء الحزين الذى يفيض من القلوب الرقيقة حين يعصرها الألم ، ويسكب فيها عصيره المرير !

ولعل ذلك أول ما لفت قلبى إلى . . «ألطاف» .

ومنـذ عرفتهـا ، أمسى يضـاعف من تأثرى الفطرى ، إشفاق مبهم ! . . صرت لا أرى مثـل هذه الصـورة الحية للأسى ، إلا ويقبض قلبى إحساس خاطف بأن وراء إطارها الأسود يكمن سر مفجع . . وتنعقد خيوط مأساة !

(١)

فى ميدان العباسية ، حيث تلتقى خطوط الترام القادمة من قلب العاصمة ، بتلك الصاعدة إلى هليوبوليس . . رأيتها واقفة ، تنتظر .

كنت قد غادرت لتوى إحدى مركبات الترام رقم ٣ كى أستقل ترام مصر الجديدة ، وكان واضحاً أنها تقصد نفس الاتجاه ، ومن تململها قدرت أنها لابد قد عانت طويلا من الانتظار .

. . ولم يلبث الترام أن وصل ، فركبتُ ، وركبَتْ هى فى العربة الأخرى كى تجلس فى مقصورة السيدات . . فلما رأتها قد ازدحمت ، وقفت خارجها مضطرة .

. . وهكـذا وجدتها ـ دون قصد ـ أمامى : أنا فى طرف العربة الأمامية ، وهى فى الطرف المواجه لى من العربة الخلفية ، وليس بيننا سوى لوح من الزجاج ، وفراغ يسير . .

ربـــاه . . كيف أنسى صورتهـــا إذ ذاك ؟ : إطـار شامـل من السواد ، رقيق بقدر ما هو حزين ، يطل منه وجه يذكر بالنقاء . . والصفـاء . . والطفولة . . برغم الظلال الخفيفة التى كانت تلثمه وتتهـالك عليه : من المعطف . . والشعر المهمل . . والأهداب . لماذا ذكرتنى صورتها ـ تلك ـ بالظلام البارد فى الصحراء ، والليل فى آخـره ، والنجـوم كلهـا قد انطفأت ، ما عدا نجمين ؟ . . ألأن عينيها كانتا تومضان ببريق حزين ، برغم الغيوم الكثيفة التى كانت تتمشى فيهما ، ببطء رهيب ! . . أم لذاك الظمأ للبكاء الذى لمحته يختلج فيهما ، والذى جذبنى ، لأنه وشى بقلبها ؟

إن ذوات القلوب الـرقيقة هن فقط اللواتى يعجزن عن مغالبة الأسى ، فتفيض عصـــارة قلوبهن من العيون ، المفتـــوحـــة أبـداً للبكاء . . أما من يقدرن على الضحك دائماً ، برغم الأحزان التى لا تخلو منها حياة ، فقلوبهن لابد غليظة قاسية . . قسوة الطبيعة فى ذلك الحين !

. . وتذكرت الطبيعة ، إذ خلت جسد الفتاة ينتفض ، كأنها من رعدة خفيفة . . فأشفقت عليها من الهواء المقرور الذى كان يقتحم ذلك الجزء المكشوف من عربة الترام ، فى قوة ودون استئذان ، كأنه يفر من العاصفة العاتية ليختبىء فى أحد الأركان . . فقد كنا فى أواخر الشتاء ، فى عصر يوم من الأيام التى ينفث فيها الشتاء كل قره وسمومه ، قبل أن يودع - إلى حين - ركناً من الأرض نزله منذ شهور . .

وكما كان الشتاء فى الجو ، كان فى قلبى أيضاً شتاء ، بضبابه وأعاصيره ورعوده . . كان قلبى هو الآخر متشحاً بغيوم سوداء ، ولم يكن متفتحاً للحب ، بقدر ما كان للرثاء والبكاء . . فقد كنت عائداً من زيارة صديق عزيز آثر الخلوة والرقاد بعيداً فى بطن الصحراء !

كان «أحمد» قد عجل بالرحيل من دنيانا قبل قدومى إلى مصر - بإجازتى تلك - ببضعة أيام . وكم آلمنى فراقه ، برغم أن عاماً كان قد انقضى منذ رأيته «آخر» مرة ! . . بل لم لا أقول أنى أحسست بنوع من «الندم» يقرض قلبى ؟ . . فإننا حين نفقد مخلوقاً عزيزاً ، تعانى قلوبنا التعسة كثيراً من الندم على أننا لم نحببه أكثر مما أحببناه ! . . ونتوهم ألواناً من التقصير والإساءات صدرت منا إليه ، فنتمنى لو كنا قد أنذرنا قبل رحيله ، إذن لغمرناه بكل ما فينا من عاطفة ، وتسامح ، ووفاء !

(٢)

. . ومر بخاطرى أحمد ! تصورته فى رقاده الموحش الدائم تحت أحجار ثقيلة من الرخام البارد ، وزئير العاصفة يعوىَ فى فضاء الصحراء . . وأعادنى هذا التصور إلى الفتاة الواقفة قبالتى ، فقد أحسست أنى أثمت فى حق أحمد حين تركت خواطرى تنساق وراء تأملات تنثرها فى خيالى صورة امرأة !

لكن خاطراً انثال إلى رأسى هامساً : ما هذا الخبل ؟ إن الأمر لا يعدو أنك وجدت عند هذا الطيف الحزين العزاء ، فى صورة إغداق الرثاء . . **فإن النفوس الحزينة لا يعزيها أكثر من مصادفة نفس أخرى فى حزن أقسى وأفجع ، ولا يريحها إلا مرأى السواد ! . .** أو تنكر أنت أن أساك قد تراجع خجلا من فجيعتها ، وأن نفسك قد استراحت من بعض حملها ؟

واقتنعت بوجاهة هذا «العذر» . . **فكم نضحك على أنفسنا أحياناً ونزين لها ما نريد ... حين نريد !**

وهكذا عدت أتأمل العذراء المنكوبة من جديد . .

« عذراء » ؟ . . ترى ما الذى أدخل فى روعى هذا الخاطر ؟ . . لعلها قسمات وجهها جميعاً ، فقد كانت قسمات ساذجة صريحة ، كصفحة مفتوحة من كتاب . . صفحة ناصعة البياض !

. . وانتقلت بتأملاتى إلى الصفحات الأخرى من كتابها ، الصفحات المطوية عن العيون ! حاولت أن أتعمق إلى القلب : ترى ما لونه ؟ هل هو الآخر ناصع البياض ، فيما عدا الغلالة السوداء التى يُسرْبِلُهُ فيها ألم فراق الأموات ؟ . . أم أنه قد اصطبغ بلون من ألوان العواطف الحادة ، التى قد تبهت ولكنها لا تزول ؟

وشجعنى على إطالة التأمل أن الفتاة كانت مشغولة عنى ، فإن نظراتها الشاردة كانت تنفذ من أقرب شىء إليها ـ دون أن تراه ـ إلى ما وراء أفق سحيق مجهول . . وهكذا لم يبد عليها أنها . . أحست بوجودى !

. . إلاّ حين هممت بالنزول ، فإن رجة الترام قبيل الوقوف هزت نظرتها من ذلك الاتجاه الغامض إلى حيث قابلت عينى ، ولابد أنها رأت فيهما الرثاء الخالص والانعطاف البرىء ، فإنها لم تشمئز ، بل خيل إلـىّ أنها قدرت لى فى سرها هذه المشاركة ، وإن كان النفور من الناس جميعاً ما لبث أن أعاد نظراتها إلى واديها السحيق !

وعندما وصلت إلى غرفتى شكرت لها ، بدورى ، وفى سرى ، أن طيفها أنسانى برودة الهواء ، وأدفأنى طوال الطريق من محطة الترام إلى «البنسيون» الذى كنت قد اخترته بمجرد وصولى إلى القاهرة فى اليوم السابق ، كى أقضى فيه مدة إجازتى السنوية . .

ولكن ، ما أقصر شهراً فى القاهرة بالنسبة لموظف فى الأقاليم ! ؟ إنه يعود بعده إلى مقر عمله منهوك القوى من فرط الإجهاد ، فإن

الشهر يجب أن يتسع لعشرات الطلبات . . وفى كل عام كانت الاجازة تفلت منى ـ دون أن أشعر ـ بين المحال التجارية ، والترزى ، والطبيب ، ودور الملاهى ، والمرور على الأصدقاء . . ولكنى فى العام الماضى أهملت أكثر هذه المشاغل لأغرق همى فى أشجان «ألطاف» !

أعترف أنى كنت قد نسيتها عقب تلك المصادفة العابرة فى الترام . . حتى لمحتها بعد يومين فى نفس الميدان ، وفى نفس موقف الانتظار ! فعادت إلى ذاكرتى فجأة الصورة الأولى بكل دقائقها . . ودهمتنى ، بكل قوة ، جميع المشاعر التى كانت قد تزاحمت فى حسى فى المرة السابقة . . فندمت على أنى أهملتها ، ولم أدعها إلى خاطرى طيلة اليومين ، كى أسرى عنها . . ولو فى الخيال !

وكم تحايل القدر بعد ذلك كى يجمعنا خلال الأسبوع التالى مرات ومرات ، فى نفس المكان ونفس الموعد ! . . حتى بدأت أحس أن صلة مبهمة كانت تختصر المسافة بيننا يوماً بعد يوم ، وأن تعاطفًا صامتًا بات يقربنى إليها أكثر فأكثر . . وإن ظلت الصلة بلا مفاتحة ، والتعاطف بلا كلام ، إيثارًا منى أن أحترم حزنها ونفورها من الناس . . خاصة وأنى لم أقدر أن سيكون لها شأن فى حياتى ، أكثر من مجرد طيف لطيف عابر ، إلا حين ضمنا موقف جديد مفاجىء بعد ذلك بأيام !

فأمام قبر صديقى الراحل «أحمد» ، لمحتها من بعيد وأنا مقبل

عليه فى إحدى زياراتى . . وللحال ، ملكنى شعور شاذ : أحسست أننا لسنا غريبين ، وأن رابطة قوية قد جمعتنا منذ أمد بعيد ، وكأنى أعرفها منذ دهور ! . . وأوقفتنى المفاجأة بلا حراك . اعتزمت أن أراقبها من مكانى ، وأن أحترم خلوتها معه ، فلا أزعجهما !

كانت منحنية على القبر فى نجوى وخشوع ، وفى عينيها أطياف دموع ، وفى يدها طاقة من الأزهار البيضاء . . وبرغم تأثرى وحزنى ، أحسست لحظتها أن زهوراً أخرى بيضاء تنبت فى قلبى ، الذى كأنما سبقنى إلى إدراك مصير مجهول ! . . وبينما أنا أحاول كظم هذا الإحساس فى نفسى ، انقطع صمت الزائرة المفجوعة ، حين انخرطت فجأة فى البكاء !

ولم أعد أحتمل . . شعرت أن قدم مارد جبار تسحق قلبى ، فى حين تسحق قدمه الأخرى ـ بلا رحمة ـ زهرة نضرة نعسانة ! ووجدتنى أقترب منها ، محاولا جهدى التلطيف من حدة المفاجأة . ولن أنسى ما أحدثه ظهورى من صدى فى نفسها ، فقد أجفلت كفراشة مذعورة . . ثم ما لبث الذعر أن ترك مكانه فى عينيها لنظرة جامدة جوفاء ، بلا معنى . .

وقالت وهى تقمع البكاء فى صوتها : «إذن . . فأنت تعرفه ؟ »

قلت : « نعم . . لقد كان صديقاً عزيزاً»

ولا أذكر ما تبادلناه بعد ذلك من كلمات قليلة ، لا تعنى كثيراً إلى جانب الاستغراق الشامل الذى ضمنا ، أمام ذكرى وقبر العزيز

الرأحل . . إلى أن خرجنا جنباً إلى جنب ، صامتين ، كأنما قد فجعنا فيه يومها فمضينا نشيع جنازته ، وفى قلبينا حداد ، ولوقع أقدامنا أنات خافتة منتظمة . .

(٣)

إن عاماً كاملا قد انقضى ، ولكنى مازلت أرتجف كلما ذكرت كيف مضينا معاً ـ على أثر خروجنا إذ ذاك ـ نجول حول الفضاء الذى يضم المقابر الساكنة الخرساء . . وكم قضينا من الزمن فى ذلك التجوال ، ننبش ذاكرتينا ، ونبعث إلى الحياة ماضياً طويلا لأحمد مع كلينا . . ماضياً مليئاً بصور وظلال رسمتها الأيام بجميع الألوان : الزاهى منها والضاحك ، والقاتم والعابس ، وكلها صور حية كانت تهمس فى آذاننا أو تصرخ ، وترقص أمام عيوننا ثم تتلوى . .

بل أذكر كم عانت «ألطاف» وكم عانيت ، وهى تظهرنى على ما كان بينها وبين أحمد من مودة ، فصداقة ، فعاطفة نقية ، حتى ذلك اليوم الذى انتهت فيه علاقتهما إلى غايتها فخطبها ، ثم تحدد يوم للزفاف . . وراح اليوم يقترب ، وهما يطيران إليه !

«ولكن أحمد تعجل !» . . أسمعها الآن فى أذنى كما سمعتها يومئذ من نغم ألطاف ، فى خليط من النحيب والحشرجة ، فقد قالتها وبكت ، واتخذت نظراتها تلك السمة الجوفاء الغامضة ، وذلك الاتجاه نحو أفق مجهول . . قريب وسحيق معاً !

ثم استطردت : « ومنذ فاضت روحه ـ بعد مرض خاطف ، قبيل زفافنا بأيام ! ـ وأنا أحضر كل يوم فى الوقت المقابل للحظة وفاته ، لأضع على قبره هذه الطاقة من الأزهار البيضاء ، التى كان ينوى إهداءها إلىّ . . ليلة الزفاف ! »

كيف نطقت «ألطاف» بهذه الكلمات ؟ . . لقد اختلط آنئذ ـ فى صوتها ـ مزيج غريب من البكاء والضحك . . ضحك عصبى واهن جعلنى لا أستغرب ما حدث على الأثر ، حين غلبها الإعياء والدوار فاستندت إلى ذراعى ، فاقدة الرشد !

وكان طبيعياً ألا أستنتج إلا أن قلبها قد عجز عن احتمال كل ذلك الإرهاق ، فأصيب بنوبة إغماء بسيطة . لذلك لم أضيع وقتاً فى الانزعاج وحملتها فوراً إلى طبيب . .

(٤)

إن عاماً كاملا قد انقضى ، ولكن أعصابى ما تزال تخذلنى كلما ذكرت كيف صارحنى الطبيب بالحقيقة المرة : إن أحمد قد مضى ، ولكن بعد أن ترك أنفاساً منه تتردد ، فى أحشائها !

إذن فهوحقاً قد «تعجل » . . واستبق الزفاف !

وآثرت ألا أصارح ألطاف بأنى وقفت على سرها ، فقد أردت ألا تكون نظرتها إلىّ ذليلة ، يثقلها أى عار . . أردتها أن تكون سعيدة موفورة الكرامة فى حياتها «معى » . . نعم ، فإن نوايای كانت قد

وضحت ، فى قلبى ورأسى معاً . . وحينما لقيتها عائدة من القبر ـ بعد يومين ـ عرضت عليها أن تشاركنى الحياة ، وناشدتها أن تقبل الزواج منى ، على أن أترك قلبها لأحمد ، تملؤه بتذكاراته وتستحضره فيه كلما أرادت ، واعداً بأن أقنع من ذلك القلب الكبير بركن منزو أزورها فيه ، حين تشاء . . !

لكن لمحة من عينيها أسكتتنى ، وأظهرت لى أنى قد تماديت فى مسايرة أطماعى ، فقد ازدحمت نظرتها بفيض من المعانى : أدركت منها الشكر ، والنفور ، والتقدير ، والاعتذار ، و و . . . .

ولما رأت إلحاحى ، وعدتنى بأن تفكر . . وأن تجيبنى فى الغد !

(٥)

إن عاماً كاملا قد انقضى ، ولكنى لن أنسى كيف مرت الساعات متباطئة ثقيلة . . حتى ذهبت إلى القبر فى عصر اليوم التالى ، وأنا فى إعصار من الانفعالات ، لأجد جوابها فى خطاب قصير ، تركته مع حارس المقبرة فى الصباح !

يا للمسكينة . . لقد استعانت بكل ما فى روحها من البراءة كى « تشكرنى » ، وتعتذر بأن ليس فى طاقتها أن تقابل عاطفتى بمثلها ، لأن قلبها ملك لأحمد . . ولأنها لا تريد أن تغشنى ! . . ثم ترجونى فى نهاية الرسالة أن أنساها ، فإنها لا تستحقنى . . « وكم أنا طيب ، ومخدوع ! »

لن أطيل . . فلقد عمدت هى بعد ذلك إلى الاحتجاب ، وانقطعت عن زيارة القبر- فراراً من إلحاحى الذى توقعته ! - وعبثاً حاولت الاهتداء إلى مقرها ، كى أصارحها بأنى لست طيباً ولا مخدوعاً . . وأنى أعرف سرها !!

ومضى أسبوع ، وأنا فريسة لانفعال عنيف ، بعد أن لم يبق أمامى باب إلا طرقته ، وارتددت عنه يائساً ! . . وفيما أنا فى حيرتى ، تذكرت فجأة طاقة الأزهار البيضاء ، وخطر لى خاطر : أن أمر على محال بيع الأزهار فى (مصر الجديدة) وأسأل أصحابها جميعاً ، فلعل منهم من يذكر عميلته ذات الرداء الأسود ، التى اعتادت أن تأخذ منه طاقة زهر كل يوم . . فيهدينى إلى مقرها !

(٦)

كيف أصف النظرة التى فاضت من عينى أمى حين عدت من القاهرة فى نهاية الاجازة ، ومعى زوجتى : «ألطاف» ؟ ! . . لقد زخرت نظرتها لى إذ ذاك بكل ما تسكبه فى العيون عاطفة أمّ تحقق أملها كاملا ، على غير انتظار ! . . ولحظتها ندمت على أنى لم أحقق لها - من قبل - أمنيتها هذه التى طالما لاحقتنى بها فى كل مناسبة ، وعند قيامى بالاجازة فى كل سنة ، راجية منى أن أكون بارًّا بها ، فأدخل إلى حياتى مَنْ تملأ البيت ، وتؤنس وحدتها . .

وحين لهجت أمى بإعجابها بتوفيقى الزائد فى اختيار زوجتى

الطاف ، وباركت زواجنا ، أحسست أن بركتها تصعد رأساً إلى السماء . . وأننا سنعيش سعداء !

***

وها قد مضى شهران منذ ولد الطفل ، طفل «أحمد» !

وحين حملته أمى إلىّ وهى تشهق بالفرح ، وتقول لى : «انظر يا بنى . . لكم يشبهك !» ، وخز قلبى نصل حاد ، وإن كنت قد أجبتها عندئذ وأنا أبتسم ، مبعداً عن خيالى وجه شيطان ساخر : «نعم يا أمى . . إنه يشبهنى . . فشكراً لله ، ولك ، ولألطاف !»

. . أما أحمد ، فقد شكرته لحظتها فى سرى !

. . حتى حضرنا جميعاً بالاجازة منذ أيام ، وأخذت ألطاف والطفل إلى قبر أبيه التعس ، لنضع عليه طاقة من . . الأزهار البيضاء ! . . وعندما بكى الطفل ـ كأنما من رهبة المكان ـ رثيت له ، وأنا أقمع فى نفسى خاطراً حزيناً : إن هناءنا الزاخر لا تشوبه إلا غصتان : افتقادنا لأحمد . . ثم هذا الزيف الذى سيلازم الطفل حين ينطق قريباً فيقول : «أبى» . . لمن ليس أباه !

وهمست لأبيه فى نجواى :

«اطمئن يا أحمد . . فسنرعاه !»

(يوليو ١٩٤٤)

رجل .. له ماضٍ !

(١)

من صمته أدركت أن همه يضنيه ، ويتجمع فى رأسه قبل أن ينفجر ويفيض على لسانه . كان صمتاً كالذى يسبق المصارحة ، يرهق كلا الجليسين : المترقب . . والمتردد !

. . لكن تردده طال أكثر مما قدرت ، ولم تفلح فى إنهائه وسائل الاستدراج التى جربتها معه ، فقد ظل ينظر إلى الفضاء خارج النافذة بثبات عجيب ، وكأن بصره مشدود إلى الأفق بخيوط غير منظورة . . فتركته لشروده وشغلت نفسى بمحاولة استنتاج السر الذى أغراه باصطحابى معه إلى منزله فى ذلك الضحى ! . . إن المَصادفة وحدها هى التى جمعتنا . كنت أعبر شارع فؤاد الأول داخل سيارة «تاكسى» حين أوقفتنى إشارة المرور عند تقاطع شارع عماد الدين . وفيما أنا أنتظر إشارة الإذن باستئناف المرور ، فوجئت بباب التاكسى الأيمن يفتح ، ويقفز منه إلى جوارى ضابط «بوليس» ، تبينت فوراً أنه « عزت » ، زميل الدراسة القديم . .

كانت قد مضت أعوام لم أره خلالها إلا لماماً ، فى فترات متباعدة ، فكنا فى كل مرة نتبسط فى الحديث فنستعيد ذكريات الماضى ،

ونتواعد على أن نلتقى كثيراً ونبعث زمالتنا القديمة من جديد . . لكن الأيام كانت لا تلبث أن تباعد بيننا فى كل مرة ، فينسى كلانا صاحبه ! . . وفى آخر مرة التقينا فيها ، منذ نحو عامين ، علمت منه أنه قد انتقل من دنيانا ـ نحن العزاب ـ إلى جوار زوجته . . فأدركت أن الشقة بيننا قد ازدادت اتساعاً ، وافترقنا يومئذ بغير أن نتواعد !

. . حتى جمعتنا المصادفة هذه المرة فى التاكسى ، فرجانى « عزت » فى إلحاح أن أصحبه إلى منزله . وكانت فى صوته رنة توسل جعلتنى أهمل العمل الذى كنت منطلقاً إليه ، وأمضى معه !

ووقف بنا التاكسى فى أحد شوارع «شبرا» الضيقة ، أمام « عمارة حرب » . . مبنى من تلك المبانى التى شيدت على عجل فى أثناء الحرب بقصد الاستغلال الفاحش . . ثم تقدمنى صديقى إلى مسكنه فى الطابق الثالث . .

على أننا لم نكد نستقر فى غرفة الاستقبال ، ويقدم لى عزت بعض الشراب ، ولم أكد أتهيأ أخيراً لسماع ما يريد أن يفاتحنى فيه ، حتى شرد منى . . وراح يتطلع إلى النافذة فى هيئة من نسى وجود ضيف إلى جواره !

وران على المكان سكون كئيب ، ذكرنى فجأة بأننى لا أرى حولى فى جو البيت الموحش ذلك الرونق السحرى الذى تضفيه المرأة على جو بيتها ، والذى ينطق قطع الأثاث الصامتة وتحف البيت الصغيرة

بان وراء تنسيقها يد ، وذوق ، مخلوقة ناعمة . . ولا أتنسم ذلك العطر الغامض الذى يهدى حواسنا إلى وجود امرأة فى المكان ! . . فقلت لصديقى مندفعاً بدون تدبر : « على فكرة ، ألم تقل لى يوماً أنك قد تزوجت ؟ إنى لا ألمح فى بيتك ظلاً لحواء ؟! » .

فامتقع وجهه بغتة ، وتبينت على صفحته ذلك الاضطراب الذى يحدثه إلقاء حجر ثقيل فى بحيرة ساكنة ! . . وبرغم ذلك لم أستطع قمع ما تملكنى على الفور من شعور شاذ بالارتياح ، لعله شعور الجراح حين يرى انبثاق الصديد من دمل ملوث ، على إثر وخزة من مبضعه . . أو شعور القصاص حين تنبئه بادرة بأنه مقبل على سماع قصة من الحياة !

وصدق حدسى ، فإن صديقى لم يلبث أن رمقنى بنظرة خلت معها كأن قاع نفسه قد طفا فجأة على سطح حدقتيه ، فعكرهما . . ثم قال فى لهجة الجاد : «متى عرفت نبأ زواجى ؟» . . فقلت ، وأنا أجهل مقصده من السؤال : «منذ نحو عامين » . . وعندئذ أطلق ضحكة استهتار ساخرة ، ثم قال متكلفاً المزاح والمرح : «أوهوه . . صح النوم ! . . أو تظننى «محدث نساء » ، أصبر عامين كاملين على رفقة ، أو ربقة ، زوجة واحدة ؟»

لكن سخريته من نفسه لم تطل ، فقد نهض على الأثر من مقعده فى تأفف وضيق ، وأخذ يذرع الغرفة فى عصبية ظاهرة ، وقد استرد مظهر الجد الصارم . . ثم أقبل علىّ يمسك بذراعى ويناشدنى فى

صوت ينطق بالحيرة القاسية : «اسمع يا فلان . . أرجو ألا تسخر منى ، فأنا أريد استشارتك فى أمر خطير ، بالنسبة لى على الأقل . . »

وقبل أن أفهم شيئاً ، أو أستفسره عما يقصد ، قادنى من ذراعى إلى حجرة مجاورة مغلقة النوافذ ، ثم اقترب بى من « شيش » النافذة المطلة على الشارع الضيق . . ولفرط دهشتى رأيته يضع عينه على ثقب مستدير فى حجم حبة «الترمس » ، يدل مظهره على أنه ثُقِبَ فى خشب النافذة حديثاً ، ثم رفع وجهه إلىّ وهو يقول : «بربك انظر . . تأمل هذه الفتاة التى تسقى أصص الأزهار فى الشرفة المقابلة ، وقل لى رأيك فيها بصراحة » . .

وعقدت الدهشة لسانى ، فقد كان ما رأيته عجباً ! . . كانت الفتاة صبية يافعة ، لا تزيد على الخامسة عشرة . . فتملكنى ميل قوى إلى أن أصيح به هازئاً : «ماذا . . أتريد أن تتبناها ؟» . . لولا أنى لمحت على وجهه لهفة ساذجة إلى سماع رأيى ، فكتمت سخريتى ـ إشفاقاً عليه ـ وتكلفت أن أقول فى إعجاب مصطنع : « وماذا يمكن أن يكون رأيى فيها ؟ لاشك أنها جميلة ورشيقة ! »

ولم يخب تقديرى ، فقد انفرجت أساريره فرحاً بهذا المديح ، ولكن فى ومضة سريعة ، كأنما بدون وعى ، ثم عاد يسألنى فى لعثمة وحماس ظاهرين : « ولكن . . ليس جمالها الذى يعنينى ، وإنما أنا أريد أن أعرف : هل تعتقد أن لها . . ماضياً ؟» .

ومرة أخرى كادت الضحكة تفلت منى ، لولا أن سارعت

أجيبه ، ساخراً برغمى : « **يا أخى . . أهذا كل ما يقلقك ؟ . . إذا لم يكن للفتاة ماض ، يكون لها مستقبل !** »

لكن النظرة التى قابل بها جوابى جعلتنى أندم على مزاحى . كانت نظرة تأثر شديد ، لا تصدر إلا من نفس معذبة ، فبادرته فى لهجة اعتذار خالصة : «ظننتك تمزح . . أو حقاً تسألنى عن ماضى هذه «الطفلة» ؟» .

وبدا أن الكلمة قد استفزته ، فقد تنهد فى حرقة ، وأطلق صوتاً يشبه ضحكة الاستهزاء المبتورة . . ثم قال وهو يغوص يائساً فى مقعد جلدى كبير ، كمن تداعت قدرته على المقاومة : « **تقول : «طفلة» ؟ . . يا لك من ساذج ! . . إن ماضى شبابى حافل بالمغامرات الشهية ، مع «أطفال» أصغر من هذه . . !**»

(٢)

وصمت برهة ، وهو يخرج من جيبه سيجارة ، ويشعلها ، ويروح ينفث دخانها ، فى بطء وروية . . ثم استطرد فى لهجة اعتزاز واعتداد برأيه :

«إن المرأة يا صديقى مخلوق عجيب ، يسبقنا فى الإدراك وتفتح الغرائز بسنوات . . انظر إلى طفلة السابعة وهى تسوى شعرها أمام المرآة ، فتتمايل دلالا ، وتلين خصرها لمداعبة عمها أو خالها ، تدرك أن المرأة إنما ترضع نزواتها وصبواتها مع اللبن ، وتلهم الخداع والغواية

قبل أن تنبت أسنانها . . فتؤمن معى بأن لا أمان لامرأة ، ولو نبت لها جناحان !

« لست أقول هذا اعتباطاً ، وإنما عن خبرة ، وتجارب ، وأهوال . . لو مرت بك لشيّبتك كما شيبّتنى . . فلعلك تعلم أننى فى هذا الميدان «محارب قديم» ، لم أبخل على شبابى بمتعة ، ولا عصمت نفسى من معصية . . كان الضمير دائماً فى معجم حياتى مرادفاً للجبن ، والشرف مرادفاً للعجز . . فلهوت ، واستمتعت . . ولم أتورع عن خطايا أو دنايا أياً كانت . . لم يعوزنى يوماً مال ، أو حرية ، أو مخدع آمن . . فاستبحت كل شىء ، وطلقت كل إيمان ، خلا إيمانى بأن خير وسيلة للتخلص من إغراء أية متعة هو الاستسلام لها . . والارتواء منها حتى الشبع ، فالملل ، فالاشمئزاز . .

« وعشت هكذا عشرة أعوام ، معيشة بوهيمية فوضوية عجيبة . . لم أبت خلالها فى مخدع واحد ليلتين متواليتين . . وخبرت فيها لهو الغوانى ونزوات المحصنات ، وذقت جميع المحرمات . . حتى سئمتها . . سئمت كل ألوان تلك المتع العابرة ، واعترانى ذلك الشعور القوى بالنقص ، الذى يغرينا بالزواج . . وتلك الحاجة الملحة إلى حياة الراحة والاستقرار ، فى رفقة امرأة طاهرة أقتنيها بلا شريك ، لا فى الماضى ، ولا الحاضر ، ولا المستقبل . .

« . . ومن ثم بدأت أبحث وأنقب ، فى روية وإمعان . كانت

تجاربى قد دلتنى على أن المرأة الفاضلة يفوق ثمنها اللآلىء ، وأن من أعقد مشكلات الزواج مشكلة العثور على فتاة يؤمن الرجل بأنها «طاهرة» ، لم تعرف القبلة ، أو اللمسة ، أو المناجاة . . وهكذا مضيت فى بحثى حتى اهتديت إلى فتاة دلنى مظهرها على أنها ضالتى المنشودة ، فاتجهت نحوها جدياً ، ولكن فى حذر اللئيم . لم أسمح لنفسى بأن أنخدع بالمظهر ، فأجريت عليها طائفة من الاختبارات الماكرة ، الكفيلة بكشف طوية أخبث النساء . . لكنها نجحت فيها كلها «من أول دور» ، وبتفوق ، فوثقت أنها امرأة مأمونة الجانب . . وتزوجتها . .

« كانت «سميرة» نموذجاً لذلك الجمال الساذج المحبب ، الذى يوحى بالطهر والبراءة . أعجبنى فيها هدوؤها وسماحتها ، وحياؤها العذب ، ورقتها الخالصة . . ونظراتها الصافية التى تطالع فيها قلبها ونواياها ككتاب مفتوح ، ناصع الصفحات .

«وتزايد إعجابى بها بعد زواجنا ، حين وجدت فيها تلك «المرونة» النادرة التى لا تملكها غير فئة «الموهوبات» من النساء . . المرونة التى تتحول بها الفتاة بعد الزواج من عذراء ساذجة إلى غانية لعوب ، متفجرة الأنوثة ، تُرى زوجها من أفانين الهوى والمتعة ، ما لا تحذقه غير الفاجرات ، وما يغنيه عن الغانيات . .

«وقد كانت « سميرة » نابغة حقاً فى هذا المضمار ، فأرتنى من فنونها عجباً . .

«لكن استمتاعى بنبوغها ذاك لم يدم أكثر من أسابيع . . تحولت حياتى بعدها إلى شبه جحيم . . »

***

وصمت صديقى برهة ، وهو يشعل سيجارته السابعة من سابقتها ، ثم أسند رأسه إلى ظهر المقعد الكبير ، وراح يتابع ببصره سحب الدخان وهى تتلوى وتتكاثف فى جو الغرفة المظلمة ، التى كانت ما تزال مغلقة النوافذ . . حتى أفاق أخيراً من تفكيره ، فاستطرد فى صوت خائر خفيض :

« . . وكانت نقطة التحول ، التى أحالت حياتى جحيماً ، وطردتنى من جنتى السعيدة ، مسألة تافهة فى ذاتها ، لولا دلالتها . . عدت إلى البيت يوماً فسألتها بلا اهتمام ، وهى تستقبلنى بعناقها المعتاد : هل حضر فى غيبتى صديق كنت أتوقع زيارة منه فى غضون ذينك اليومين ؟ . . فأجابتنى دون إبطاء : «أبداً . . ما جاش حد النهارده خالص . من وقت خروجك وأنا قاعدة لوحدى متضايقة » ، فاقتنعت بقولها فوراً . . وكان يمكن أن تمر المسألة بلا ذيول ، لولا . . آه . . أى شيطان أوقع بصرى لحظتئذ على يدها القابضة على «طقطوقة » السجاير ؟ . . وما الذى جعلنى أسألها فى سخف عما كانت تفعل بها ، كى تجيبنى ، وقد بدأ الاضطراب يلم بها ، بأنها تناولتها قبيل دخولى كى تأمر الخادم بتنظيفها ؟ . . ثم أى وسواس جعلنى أتناول الطقطوقة من يدها ، كأنما بغير قصد ، فأعثر

فيها على عقب سيجارة ، من غير السجائر التى أدخنها ؟ . . وفيم كان ذلـك خليقـاً بأن يهمنى أو يقلقنى ، أنا الذى كنت أعلم أن جارتنا التى تقطن المسكن المقابل كثيراً ما كانت تأتى إلى مسكننا كى تستخدم التليفون فى محادثة قصيرة ، فتدخن فى أثناء ذلك سيجارة ثم تخرج . . ؟

«كلها أسئلة لا أذكر الآن جوابها ، واعتبارات لا أذكر ما الذى أعـمانى عنهـا فى حينها . . كل الذى أذكره أننى سألتها يومئذ عن صاحب عقب السيجارة ، فتلعثمت وترددت . وزادنى ترددها حدة وانفعـالا ، فألحفت فى السؤال . . وزادها انفعالى خوفاً وارتباكاً ، فأمْعنت فى الإنكار ! . . ثم تطور النقاش بيننا حتى ضيقت عليها الخناق ، وأحست حرج موقفها ، فتراجعت عن تشبثها ، وأقبلت على تلاطفنى فى نعومة الحية ، وهى تبتسم ابتسامة اعتذار خلابة ، ثم تقول . . إن صديقتها «وداد» هى التى دخنت تلك السيجارة حين زارتهـا فى ذلـك الصباح . . وإنها قد خشيت مصارحتى بنبأ زيارتهـا لعلمها بأننى لم أكن «أستلطف» تلك الصديقة بعدما أثير حولهـا من أقـاويل ، ولأننى كثيراً ما أبديت لها عدم ارتياحى إلى صداقتهـا ، إلى حد أن صار مجرد ذكـر اسمها ودفاع زوجتى عن صديقتها «المظلومة» يثير أعصابى !

(٣)

« . . وكان ذلك بداية شقائى ، فمنذ تلك الساعة فرّ طائر السعد من عشنا الزوجى ، وهبط مكانه غراب الشك القاتل اللعين !

«لا تتسرع فتتهمنى بضيق أفق التفكير ، وبأن زيارة تلك الصديقة فى ذاتها هى التى أيقظت شكوكى وغيرتى الدائمة . . فلو أن «سميرة» أحسنت التصرف وصارحتنى بالحقيقة من البداية لما أغضبتنى - برغم نفورى من صديقتها وعدم استساغتى غمزاتها ، وضحكاتها ، ونكاتها غير اللائقة - ولما كان الأمر قد تعدى من جانبى حد الإغضاء أو «لفت النظر» ! . . لكن الذى أنمى الشك فى قلبى منذ تلك اللحظة حتى أفرخ وتكاثر ، شىء واحد : أكذوبة زوجتى ! . . فقد أخذت أسأل نفسى وأجيب ، وأبدى وأعيد : «مادامت سميرة قد استطاعت أن تكذب على ، أن تواجهنى بعينين كاذبتين ، وفم مدلس . . فماذا بقى ؟ وماذا يضمن لى أنها لا تكذب على فيما هو أخطر وأفدح ؟ . . وكيف يمكننى بعد ذلك أن أثق بصدق كلمة واحدة مما تقول لى ، فى أى شأن من الشئون ؟» .

«وهكذا راحت تنتابنى ، وتتجاذبنى ، الوساوس ! . . فأدركت أن تلك بداية تعاستى ، وأننى قد فقدت إلى الأبد أمنى البيتى وطمأنينتى النفسية ، لكنى عجزت مع ذلك عن تدارك هذا الشقاء

الزاحف على بيتى وحياتى ومستقبلى . . فاستفحل وتفاقم ! صارت أيامى دوامة من العذاب المتصل . بت أشك فى كل أقاويل زوجتى وأفعالها ، وأستريب فى جميع حركاتها وسكناتها . . وتمثلت فى خاطرى مختلف صور الخيانة الزوجية التى لمستها بنفسى ، أو عن كثب ، خلال سنوات شبابى العابث . أخذت أفسر على ضوئها كل ما يبدو من « سميرة » أو يبدو عليها . . صار يكفى أن أراها تطيل التزين أمام المرآة كى أقول لنفسى والشك يذهب بى كل مذهب : «لعلها تتأهب للقاء عشيق لها فى الخارج ، أو استقباله فى بيتى بعد خروجى !

« . . وإذا عدت يوماً من عملى قبل أن تعود من إحدى «زياراتها» ، ساءلت نفسى قلقاً : «ألا يجوز أن تكون الآن منفردة مع رجل فى مسكنه ؟» . . وإذا دخلت البيت مرة فوجدتها مشعثة الشعر قليلا ، أو خيل لى ذلك ، مزقتنى الوساوس وتوهمت أنها قد انتهزت فرصة تغيبى عن البيت واستقبلت عشيقاً فى مخدعى !

« . . وهكذا ، إلى آخر تلك الهواجس الموجعة والشكوك الفظيعة التى صرت نهباً لها طوال ليلى ونهارى ، حتى مزقت أعصابى . . وكادت تفقدنى صوابى !

«وهل أنسى يوم عدت من المقهى ذات مساء ، فلم أكد أصعد الدرج وأبلغ الطابق الذى فيه مسكنى حتى رأيت صديقاً لى يطرق بابى ، فلما رآنى خيل إلى أنه تلعثم قليلا وهو يقول لى : «الله ! . .

هو انت لسه ما جتش البيت ؟ ده أنا كنت فايت من الناحية دى فقلت أما أدخل أمسى عليكم . . وازاى المدام ؟ إن شاء الله تكون بخير ؟» . . فأكدت له أنها بأتم خير ، ودخلنا . . لكنى قضيت السهرة كلها شارداً فى واد سحيق ، نهباً لأقسى الوساوس والشكوك . . فقد ذكرنى موقف صديقى على بابى بموقف مشابه من مواقف شبابى العابث ، كنت أنا أيضاً أحد بطليه ، أما بطله الآخر فكان صديقاً قديماً لى كنت على صلة . . بزوجته . . وكانت قد عودتنى أن ألقاها فى بيتها ، خلال فترة تغيب زوجها فى عمله . . فصادف أن كنت منصرفاً من مسكنها ذات يوم على إثر خلوة مختلسة ، وفيما أنا أهبط السلم . . لمحت زوجها صاعداً . . وكان لابد أن نلتقى فى منتصف السلم ، فيدرك كل شىء ، أو يسترِيب فى الأمر على الأقل . . ومن ثم ألهمنى ارتباكى فى ذلك الموقف المشئوم أن أسارع فأصعد الدرجات القليلة التى هبطتها ، ثم أقف على باب مسكنه أطرقه . . كأنى قادم تواً لزيارته ، ولست منصرفاً من لدى زوجته .

«وجازت الحيلة على التعس ، فدخلت معه من جديد . . وقضينا ثلاثتنا بقية السهرة فى مرح . . برىء !

«ذلك هو الموقف الذى خلته قد تكرر ، حين رأيت صديقى الجديد الأعزب يطرق بابى ، أنا الذى صرت زوجاً . . فعادت إلى ذاكرتى القصة القديمة بأبشع تفصيلاتها ، وخيل إلى أن القدر أراد

أن يقتص لضحاياى منى ، فأعاد التاريخ نفسه مرة أخرى . . ولكن مع فارق خطير : هو أنى قد صرت الزوج المخدوع ، بعد أن كنت الصديق المخادع . . والمجنى عليه ، بعد أن كنت الجانى .

«وهكذا انقضت السهرة فى تلك الليلة وأنا فريسة لذلك الشك الرهيب ، الذى يغرى بالجريمة ، أنقل بصرى الزائغ بين زوجتى وصديقى ، حائراً . . جامداً . . صامتاً . . ويودى أن أغمد خنجراً فى قلبيهما ، كى أنتزع منهما ما يخفيان . . وكلما ضحكا أو تبادلا نظرة «ودية » ، وقعت ضحكاتهما على أذنى كالمطارق الثقيلة ، ونفذت نظراتهما إلى قلبى كالطعنات المسمومة . .

(٤)

«وغدت حياتى جحيماً لا يطاق ، أفقدنى أمنى وراحتى ، ونومى وأعصابى . . وكاد يفقدنى عملى . . فقد صارت شكوكى فى زوجتى شغلى الشاغل ، وهمى المقيم . صرت أجلس إلى عملى شارداً أفكر فيها ، وفى عشاقها ، فأتمثلها غارقة فى أحضان أحدهم ، تهزأ بى وبغفلتى . . فيجن جنونى وأنهض ، كالمعتوه ، أتناول طربوشى وأخرج بدون استئذان كى استقل «تاكسى» ينهب بى الطريق نهباً إلى البيت . . ثم أصعد السلم قفزاً على أطراف أصابعى ، وأفتح الباب متلصصاً ـ كيما أفاجئها بين ذراعى عشيقها الموهوم ـ فإذا بى أراها جالسة فى الردهة تقرأ كتاباً ، أو تنسج لى

صدارٍ من الصوف . . فتلقانى بهدوئها المثير وابتسامتها الغامضة ، متسائلة عن سبب عودتى مبكراً .

***

«وكم كلفنى هدوؤها المثير ، وابتسامتها . .

«كنت حين ترهقنى الوساوس فتثور أعصابى ، أنهال عليها بوابل من الاستفسارات المحرجة و«الاستجوابات» اللحوحة . . فلا تغضب أو تثور ، وإنما تتركنى أفرغ كل ما فى جعبتى ، مكتفية ـ فى الرد على ـ بتلك الابتسامة الغامضة الخلابة ، وذلك الهدوء البارد ، المثير ، كأننى أمزح أو ألقى نكتة «بايخة» لا تستحق التعليق . .

«وكم أغرانى هدوؤها ذاك بأن أتناول رأسها بين يدى كى أحدق فى عينيها الضاحكتين بنظرة فاحصة نارية ، وأنا أصر على أسنانى غيظاً ، وأقمع جاهداً ثورة دمى وأعصابى التى تهيب بى أن أحطم رأسها وأستريح ! **فيكون رد الفعل الوحيد الذى تقابل به ثورتى على هذا النحو ، نظرة ناعسة ساخنة ترفع بها عينيها إلىّ ، واختلاجة راعشة من شفتيها ، تطلب القبلة . . وتستثير الجماد !**

***

«وليت الليل كان يريحنى من عذابى ، إذن لوجدت أعصابى فرصة تهدأ فيها وتستكين . . لكن البلاء الأكبر أن هواجسى خلال النهار كانت تتجسم وتتضخم فى أثناء نومى فى صورة كابوس مفزع ،

أرى فيه زوجتى فى أبشع أوضاع التبذل والتهتك ، تتقاذفها أذرع ـ وأحضان ـ الرجال ! . . **فأصحو من نومى مذعوراً ، سابحاً فى عرقى البارد ، لأجد « سميرة » مستغرقة فى أشهى نعاس وأعذب أحلام ، وقد انفرجت شفتاها وأسنانها اللؤلؤية البيضاء عن تلك الابتسامة الغامضة الخلابة . . التى تغرى بالجريمة !**

«وقد كدت أرتكب الجريمة فعلا ، ذات ليلة ! . . لم أكد أفيق من كابوسى فزعاً ، وأراها تبتسم فى حلمها ـ لست أدرى لمن ! ـ حتى جن جنونى ، واستبدت بى غيرة فظيعة وشك قاتل ، فأطبقت بكلتا يدى على رقبتها ، أريد إزهاق روحها . . لولا أن أيقظتها إرادة الحياة وضغط يدى ، فانتفضت تدفع الأذى عن نفسها بذراعيها وساقيها . وإذ ذاك خشيت أن تفتضح نيتى ، فسارعت إلى سحب يدى من حول رقبتها ، وتظاهرت بالاستغراق فى النوم . . فظنت المسكينة أن ما أحسته كان محض كابوس !

***

وأطرق محدثى برهة ، ليقمع انفعاله الأذى أثارته الذكرى ، ويدخن سيجارة أخرى . . ثم استطرد بعد حين :

« . . **ولم أطق صبراً على عذابى آخر الأمر . . فطلقتها ! . . طلقت المسكينة وأنا أكاد أومن بأنها بريئة ، وأن هواجسى ليست غير أوهام تنبع من وحل مباذلى ومغامرات شبابى الفاجرة** . . وحين تململ ضميرى ، أخرسته بحجة أن الذنب لم يكن كله ذنبى ، وأن

طبيعة الفتاة الهادئة ، وبرودها المثير ، وأنوثتها العارمة . . كانت المسئولة عن المأساة !

« . . وعلى هدى هذا التعليل أقنعت نفسى بأننى أستطيع أن أسعد مع . . أخرى . . لو وفقت فى الاختيار ! . . فلم أكد أنفض يدى من «سميرة» ، حتى بادرت إلى البحث عن زوجة جديدة !

« . . ولم يطل بحثى . . فسرعان ما اهتديت إلى فتاة راعيت فيها أن تكون طباعها على النقيض من الأولى : فاخترتها نحيفة الجسم ، على نصيب متوسط من الجمال ، ونصيب ضئيل من الأنوثة ، قوية الميل إلى العلوم والآداب والفنون ، وكل ما يشغلها عن التفرغ لعبادة نزوات جسدها وشبابها ! . . كما حرصت على أن تكون موفورة الحمية والتوثب والنشاط ، مجردة من جرثومة ذلك الهدوء البارد الذى كان يحنقنى على الأولى ويثير شكوكى فيها ووساوسى . . !

«لكن الإخفاق الذى منى به زواجى الأول كان من نصيب الثانى أيضاً ، مع فارق واحد : هو أن طبيعة «فوزية» الثائرة وعصبيتها الزائدة وحساسيتها البالغة ، قد أعجزتها عن احتمال هواجسى ، والرقابة الصارمة التى فرضتها عليها ، فصارت تقابل ذلك منى بالثورات الصاخبة والهياج الشديد . . مما عجل سريعاً بالنهاية ، بعد أن عشت أشهراً فى جو عاصف من الشجار الدائم والمشاحنات التى لا تنتهى إلا لتبدأ ، ولا تهدأ إلا لتثور !

« وفى هذه المرة لم أكن غبيًّا ، أو متغابياً . . أدركت أن علة شقائى

لا تصيبنى من الخارج ، وإنما تكمن فى أعماقى . . وتفعل فعلها المدمر فى نفسيتى كجرثومة الداء الخبيث . . فتبلجت الحقيقة الأليمة أمام عينى كالنور الساطع . أيقنت أن «سرطان» الشك القاتل قد تمكن من عقلى الباطن ، وأن نفسى قد تسممت بالجو الفاسد الخانق الذى قضيت فيه أعوام شبابى الباكر ، فلم يعد فى إمكانى الاطمئنان إلى طهارة امرأة أو إخلاصها ، وصار الزواج حراماً علىّ . . كما صارت العودة إلى حياتى العابثة مرة أخرى ضرباً من المستحيل ، فقد عافتها نفسى بمجرد أن تغيرت زاوية نظرتى إليها فأصبحت من ضحاياها !

«وهكذا انتهيت من حيرتى إلى نتيجة واحدة : هى أن لا خلاص لى من عذابى إلا بالفرار من دنيا النساء ، وإخراجهن جميعاً من محيط حياتى ! . . وركنت نفسى إلى هذا القرار ، فأحسست ـ لأول مرة منذ أعوام ـ بارتياح خالص عميق . . »

وتنهد صديقى فى حرقة ، وهو ينظر إلى من وراء نظارته بعينين متعبتين ، ونظرة يائسة ، ثم مضى فى كلامه : « . . لكن الاستغناء عن الخبز والماء أسهل على مثلى من الاستغناء عن النساء ! . . فبالرغم من كل «الإجراءات» الحازمة التى اتخذتها ، على سبيل الحيطة ، بمجرد انتهائى إلى ذلك القرار . . وبالرغم من تركى مسكنى القديم الذى شهد مأساتى زواجى ، وتغير جو معيشتى تغيراً تاماً ، وعودتى إلى الاختلاط ببطانة من الرجال راعيت فى اختيارهم

أن يكونوا من طبقة أرباب الأسر المحافظين الذين لا يرد على ألسنتهم ذكر النساء . . بالرغم من ذلك كله فإن القدر ما يزال واقفاً لى بالمرصاد . . إذ لم ينقض على انتقالى إلى مسكنى هذا أسبوعان ، حتى . . حتى خارت عزيمتى أمام فتنة عينى الصبية التى أريتك إياها من ثقب النافذة منذ حين ، فأحببتها . . لا تسخر منى ، نعم أحببتها بكل طاقة قلبى وروحى ، حبًّا أعترف لك بأنى لم أحمله قط لامرأة ! . . فلم أحس إلا وأنا أرتكب جميع الحماقات التى طالما سخرت من «إخوان الصفا» بسببها حين كانوا يقصوّن أمرها علىّ . . صرت أستلقى على فراشى وأغمض عينى ، ثم أنطلق إلى أودية الخيال فى «رحلات» طويلة لا تنتهى ، عذبة ومضنية معاً ! . . ولأول مرة فى حياتى ذقت طعم الأرق والسهاد من أجل امرأة ! . . ولأول مرة عرفت مرارة انتظار رؤية المحبوب . صرت أنتظر ساعتى الضحى والغروب بلهفة الفتى المراهق ، كى أراها تخرج إلى الشرفة وفى يدها «رشاش» الماء تسقى به أصص الأزهار فى مرح وانشراح ، وهى تغنى وتبتسم ، فإن تلك هى فرصتى الوحيدة لرؤيتها . . أما فيما عدا تلك الدقائق الخاطفة فهى لا تبرح غرفتها ، وإنما تقضى أكثر الوقت مسترخية على ذلك المقعد «الهزاز» الذى تستطيع أن تراه فى ركن الغرفة ، أو مستلقية على فراشها تقرأ مجلة ، أو تغنى وتصفر بفمها ، لاهية عن الشاب المنكود الذى يراقبها من ثقب صغير فى النافذة ، دون أن تشعر !

« . . نعم ، فلقد غدت مراقبتى إياها مسلاتى الكبرى ! . . منذ ستة أشهر وأنا أراقبها من هذا الثقب ، ساعات كل يوم . . حتى أصبحت أعرف أدق دقائق عاداتها وطباعها وميولها ، ألازمها ببصرى وخيالى حين تأوى إلى فراشهـا فى الليل ، وحـين تنهض منـه فى الصباح . . حين تقرأ وحين تدرس وحين تتزين أمام المرآة . . وطوال تلك المـدة لم ألحظ عليهـا ما يريب ، حتى بت أجزم بانها زهرتى المنشودة ، التى لم تفض بعد أكمامها ولم تنزع عنها أشواكها . . ومنذ رسـخ فى ذهنى هذا الاعتقـاد ، وجـدتنى ـ بالـرغم منى ـ أعيش وأتنفس ، وأصبح وأمسى ، على أمل واحد تركزت فيه كل أمانىّ فى الحياة : أن أتزوجها ! . . وعبثاً حاولت قمع هذه الأمنية فى نفسى وانتزاع جذورها من خيالى ، فقد تعمقت وامتدت وتأصلت بدون أن أشعر ، فغدا اقتلاعها من خاطرى بمثابة انتزاع روحى من جسدى ! وغدوت ولاهمّ لى غير توطين نفسى على ذلك ، وإعداد العدة للزواج . .

«لكننى كلما اقـتربت «ساعة التنفيذ» ، أحسّ بأننى مقدم على حماقة كبرى . . على وضع حبل المشنقة فى عنقى من جديد . . فإنى واثـق من أنـنى سأشقى بهذا الـزواج ، كما شقيت فى المـرتـين السابقتين . . بل إن الذى يحز فى نفسى ويجعلنى أرتجف هلعاً كلما تصورت الجحيم الذى أنا عائد إليه بمحض إرادتى ، هو إشفاقى على الفتـاة التى أحبهـا من ذلـك الجحيم ـ أكثر من إشفاقى على

نفسى ـ ويقينى بأننى سوف أشقيها معى ، وأذيقها عذاباً مريراً ، بالرغم منى . . ولكن ماذا أفعل ؟ . . إنى أحبها ، ومن المحال أن أسلو فكرة الزواج منها بحال ! . . كما أن من المحال أن أسعدها وأسعد معها ، هى أو أية امرأة أخرى ، ما دام سم ذلك الشك القاتل يسرى فى دمى . . إنه شىء يحدث بالرغم منى ، شىء فظيع رهيب لا قبل لك بتصوره ، ولا قبل لى باحتماله مرة أخرى . . إنه سوف ينتهى بى إلى الجنون . . فبالله أنقذنى بأى ثمن ، رحمة بى . . وبالفتاة ! . . حل بينى وبين إتمام هذا الزواج الذى سيقودنى وإياها إلى كارثة مفجعة . . فإنى واثق من أن شكوكى وهواجسى المخيفة سوف تعاودنى ، وتنتهى بى إلى أن أقتل المسكينة هذه المرة ، ثم أقتل نفسى ! . . فبربك انقذها من هذا المصير ، فإنها فى زهرة شبابها ، وأنا أحبها . . يا إلهى ، لكم أحبها !»

. . وكانت دموعه قد بدأت تفيض وهو يتكلم ، وتهطل على وجهه ، حتى خنقته غصته آخر الأمر . . فأجهش بالبكاء ، بصوت عال وحشرجة أليمة ، وقد دفن وجهه بين راحتيه . .

وحين رفع وجهه ونهض بعد حين ، بعد أن استرد بعض هدوئه ، كان وجهه فى صفرة الأموات !

***

وعبثاً حاولت أن أسرى عنه طوال ذلك الأسبوع ، فأنتزعه من جوار تلك الفتاة ، أو أنتزع خيالاته من رأسه . . فاضطررت آخر

الأمر مكرهاً أن أتركه لشأنه . .

. . حتى طالعت فى الصحف منذ يومين نبأ نقله إلى نقطة بوليس جبل «الطور» . . بناء على طلبه !

. . كأنما يستطيع التعس أن يعيش بعيداً عن النساء ! . . أو يطرح عنه فى ظلمات منفاه . . أثقال ماضيه !

(يوليه ١٩٤٧)

obeikandl.com

أبــو الهــول .. امــرأة !

(١)

كنا نتحدث فى أغرب أطوار النساء !

وكنت قد رويت للأطباء الثلاثة قصة للكاتب الإنجليزى « أوسكار وايلد » ، بطلتها امرأة أولعت بإحاطة نفسها بجو من الغموض والتخفى ، لا لسر يستحق الإخفاء ، وإنما لكى تثير حولها غباراً من الشك .. والغيرة .. والفضول .. ولتوهم نفسها أنها بطلة من بطلات المآسى المثيرة والأقاصيص !

وتحمس أحدنا ـ وهو طبيب شرعى ـ للفكرة الساخرة ، فراح يعززها بسيل من الشواهد والأدلة ، المستمدة سواء من ذكرياته الخاصة ، أو من اختباراته الطويلة ـ بحكم عمله المتصل بدراسة الطبائع البشرية ـ ثم لخص رأيه قائلا إن المرأة مجموعة من «الغرائز» البدائية ، يسهل على من يفهمها أن يفسر على ضوئها ما يبدو لصاحب النظرة السطحية أنه من أطوار النساء الغريبة !

فاعترض ثالثنا ـ الذى كان طبيبًا للأمراض النفسية والعصبية ـ على هذا الرأى ، فى إطلاقه ، متحمسًا بدوره للقول بأن مرد الأمر

كله إلى علم النفس . . الذى لا يستعصى عليه حل أعوص الألغاز !

وكان رابعنا طبيبًا بيطريًا من الإسكندرية ، فرأيته يبتسم وهو ينصت لنظريات زميليه ، ابتسامة ذات معنى ! . . فلما فرغا ، اعتدل فى جلسته ، كمن يتأهب لحديث طويل ، ثم قال :

« إذن ، فلعل أحدكما يتفضل علىّ بحل هذا اللغز :

(٢)

«حدث ذلك فى الاسكندرية ، فى أوائل صيف ١٩٤٤ .

« كنت قد اعتدت تناول الشاى ، وقضاء ساعة الأصيل من كل يوم ، فى حديقة فندق (البوريفاج) بالرمل ، حيث كانت أعصابى المرهقة تجد زادها فى الهدوء الذى يضفى جوه على المكان . .

«وهناك رأيت لأول مرة : «شهر زاد» !

«لم يكن جمالها وحده هو الذى لفت إليها بصرى ـ ثم غير البصر من حواسى ! ـ فقد كان المكان مليئًا بالجميلات ، والكورنيش فى الخارج يعج بمواكبهن . . وإنما كان الفضل للمصادفة البحتة ، أو ما حسبت يومئذ أنه مصادفة !

« كنت قد لمحتها مرارًا فى الأيام المتوالية السابقة ، جالسة مع امرأة أخرى فى ركن من الحديقة ، وقد أخفت عينيها وراء نظارة أنيقة كالتى تلبسها المجندات الأمريكيات ، فلم أكن ألقى إلى أيهما

بالا . . إلى أن كان يوم كنت أهم فيه بدخول الحديقة ، فرأيتها مقبلة من بعيد فى طريقها إلى الباب . . ثم توسط بيننا أناس حجبوا كلا منا عن الآخر لحظات ، فلما انحرفوا وجدتنى فجأة أمامها وجهًا لوجه ، وهى تهمّ باشة بمصافحتى . . ثم تجفل فى آخر لحظة مرتبكة ، وتبادرنى فى صوت رقيق : «معذرة ، حسبتك زوجى ، أقصد شخصًا آخر . . فلكم أنت تشبهه من بعيد ! »

« . . وكانت بادية الصدق فى لهجتها ، وفى حمرة الخجل التى لونت وجهها الخمرى الفاتن . . ثم ودعتنى بتمتمة خافتة وخرجت مسرعة !

«وطبيعى أننى حرصت فى اليوم التالى على التبكير فى الذهاب إلى (محلى المختار) . . ولم ألبث أن رأيتها وصاحبتها تدخلان ، وتجلسان ، ولكن بدون أن يبدو على الأولى أن بصرها قد وقع على من قبل ! . . ففسرت ذلك بحذرها ، أو رغبتها فى نسيان ما جرى ، ولاسيما أن مظهرها كان يوحى بأنها من شاباتنا المحصنات ، والمترفات . وفيما أنا أتأملها ، بنظرات غير ملحوظة ، سطعت الشمس على خاتم ماسى فى أصبعها يخطف الأبصار ، وعلى «دبلة» الزواج !

***

«وصرت أراها كثيراً ، فى معظم الأيام ، دون أن أعبأ بمراقبة حركاتها ، أو أفكر فى تلك المصادفة التافهة التى جمعت بيننا بضع

لحظات . وذات مغرب ، حانت منى نظرة إلى منضدتها ، حيث كانت جالسة بمفردها قبل هنيهة ، فإذا المنضدة خالية . وفى تلك اللحظة طرأ ما شغلنى عنها كلية ، فقد أقبل الساقى يدعونى إلى داخل الفندق على عجل ، وإذا بمديره يرجونى الإسراع إلى غرفة فى الطابق الثانى لعلاج حالة مغص حادة . ثم فتح لى باب الغرفة ، وتركنى على عتبته . . مبهوتاً !

« كانت صاحبتنا متمددة على «ديفان» كبير ، يغلف بدنها الممشوق «روب» خمرى شفاف ، فى لون بشرتها ، وقد أغمضت عينيها ، ونسيت على شفتيها ابتسامة حالمة . . ويظهر أنها حسبتنى مدير الفندق ، فلم تكد تفتح عينيها وترانى ، حتى فوجئت ! . . ثم تمالكت نفسها وقالت ، بصوت ذابل :

ـ أهو أنت ؟ . . إنى أحس . .

«ثم قطعت كلامها صيحة مكتومة ندت منها وهى تتلوى ، وبدنها يختلج بحركات ناعمة ، كأنها حية ترقص على الفراش . . ثم أردفت لاهثة :

ـ أسعفنى يا دكتور . . فإنى أخشى أن يكون مصرانى الأعور قد التهب !

«وعادت تتأوه ، وتزوى ما بين عينيها ـ كأنما من فرط الألم ! ـ حتى لم أعد أطيق . . وذكرت أننى دخلت الغرفة كطبيب ، وأنه ليس من اللائق أن تطول غيبتى فيها ! وخشيت فى الوقت نفسه أن

أفقد توازنى . . فأردت حسم الموقف بأسرع ما يمكن . قلت فى تهكم خفى :

ـ عفـوًا يا هانم . . ولكن يظهـر أن فى الأمـر لبسًـا ، فإننى طبيب . . بيطرى !

« . . وضغطت الجرس ، فلما أقبل الخادم ، قلت له جادًا :

ـ أسعف الهانم . . بكأس من الكونياك !

. . ثم حييتها وخرجت أنتزع أقدامى انتزاعًا ، نحو سيارتى . .

***

« . . على أنـه كان فوق طاقتى أن أنسى ما حدث ، ومـا كان عساه أن يحدث ! . . وأشفقت أن تكون تلك هى نهاية القصة . . فلم يجىء عصر اليوم التالى حتى كنت أسرع إلى الفندق ، فأستفسر من مديره عن صحة مريضة الأمس ، متوقعًا أن يجيبنى بأى جواب ، إلا الذى فاجأنى به حين هزّ رأسه علامة الجهل التام ، ثم قال إنها قد غادرت الفندق فجأة بعد خروجى ، كما حلت به فجأة فى صباح اليوم نفسه . . فلم تقض فيه أكثر من سحابة النهار !

«واضطربت موازين الأشياء فى رأسى . . لم أستطع فهم السر فى تكلفها كل هذه المشقة ، وتدبير تلك الحيلة «الساذجة » ، للوصول إلى ما تصـل إليه غيرها بنظرة ! . . ودارت بى الأرض ، وتملكتنى رغبـة جارفـة فى أن أسـترد المـرأة بأى ثمن ! . . فجلست أفكر فى أمرى ، وأنا شبه محموم . . وإذا بى لا أصدق عينى : رأيتها تدخل

الحديقة ، وتجلس فى ركنها المعتاد ! . . فتقدمت نحوها متكلفًا هدوء طبيب الأمس ، وبادرتها بالسؤال عن . . صحتها ! . . ولدهشتى رأيتها تشكرنى بابتسامة ما تزال «ودية» . . على أنها سرعان ما قالت فى اضطراب ظاهر :

ـ اعذرنى إذا لم أدعك للجلوس ، فإنى أخشى أن يرانا أحد !

«فوجدتنى أجيبها بدون أن أعى :

ـ إذن سأنتظرك فى سيارتى فى الساعة الثامنة . .

***

«وخرجت إلىّ فى الميعاد . . وكان الظلام قد هبط ، والكورنيش قد خلا من مواكب المصطافين ، فانطلقت بالسيارة فى الطريق المظلم . . وإذا مرافقتى تجنح فى جلستها متحاشية الاقتراب منى ، ثم تتشاغل عنى بالنظر إلى . . البحر !

«وأدهشنى منها هذا التهيب ، الذى لا يتفق مع ما سبق من مقدمات ! . . وازداد عجبى للتناقض الصارخ بين مظهرها و «تصرفاتها» ، حين عرضت عليها أن نذهب إلى مشرب معين ، فقالت على الفور :

ـ كلا ، لا أستطيع الجلوس فى مكان ، فلنمض بالسيارة قليلا . .

« . . ثم عادت إلى الصمت والوجوم ، والتحديق فى البحر بنظرات شاردة !

«وتبادلنا بضعة أحاديث قصيرة ، لم تفض إلا إلى يقينى بأننى أمام مغامرة شاذة ! . . وخيل إلى أن المسكينة فى صراع مع نفسها ، وأن عوامل كثيرة ـ أجهلها ـ لابد تتنازعها ، وتوقعها فى حيرة مرة . . وكنا قد بلغنا (محطة الرمل) ، فقلت لها أخيرًا ، وأنا أتوقع جميع الاحتمالات :

ـ أعرف ما يلزمك : جلسة فى مكان منعزل ، نستطيع فيها أن نتفاهم ، فى جو لا يعكره خوف أو قلق . تعالى معى يا . . ؟

« . . فقالت على الفور ، كمن وجدت فى سؤالى عن اسمها خلاصاً من حيرتها بين رفض اقتراحى ، وبين الجرأة على قبوله :

ـ تستطيع أن تسمينى «شهر زاد » !

«ثم لاذت بالصمت . . حتى أوقفت السيارة أمام منزلى ، ونزلنا ، فسارت معى صامتة . . وصعدت السلم صامتة . . ثم دخلت مسكنى ، وتهالكت على أحد مقاعد الصالون ، وهى صامتة ما تزال !

«وخطر لى أن أبدد جوّ الوحشة الذى يسود بيت الأعزب ، والذى قد يزيد من تهيبها ، فأدرت مفتاح الراديو للتسرية عنها بموسيقاه . . وإذا هى ترجونى ألا أفعل ، معتذرة بصداع مؤلم ! . . وكان صوتها متعباً ، مشرباً بالانفعال المكتوم ، فاستأذنت فى التغيب عنها لحظات ، وقصدت إلى غرفة المائدة لأحضر لها شراباً ينعشها . . ثم عدت بعد قليل وأنا أقول كلاماً فى امتداحه . . لكنى لم أكد أدخل

الصـــالـون ، حتى ماتت بقيـة الكلمات على شفتى ، فقـد كانت الغرفة . . خالية !

«وكان ذلك أكثر مما أحتمل . . ولم يخفف من لوعتى إلا عثورى على حقيبـة يدها فوق منضدة الراديو ، مما جعلنى أعتقد أنها لابد ستعود لاسترادادها !

« . . ولكن ليس بالسرعة التى عادت بها !

«لم يكن قد مضى على «فـرارها» أكثر من نصف ساعة ، حين سمعت طرقـاً خفيفـاً على الباب ، فإذا بالطارق هى ! . . أو قل مخلوقـة أخـرى ، يشـع وجههـا البـاسم إشراقاً ، وقوامها المياس إغـراء ، وهى مستنـدة بظهـرهـا فى تراخ ودلال على زاوية الباب المفتـــوح . . وكـــأنها مستلقيـــة على أرجـــوحـة ، لا تقـوى على النهـوض . . وإنما تقوى على أن تقول فى لهجة فاترة ، والكلمات تتكسر على لسانها ، والابتسامة الخلابة ترف على شفتيها وتلمع فى عينيها :

ـ ألا تدعونى للدخول ؟ . . أم أنى أزعجك ؟

«فقلت كالحائر :

ـ تزعجيننى ؟ . . حاشـاك . وإنـما أعترف أنك ربيت فى قلبى الرجفة ، من توالى مفاجآتك !

فندت عن صدرها ضحكة كخرير الماء ، وقالت فى لهجة اعتذار ناعمة :

ـ كم كنت حمقاء ! تصور أننى خفت . . هاها . .

فوجدتنى أسألها :

ـ والآن ؟

. . فلم تتردد ، وأجابت فى لهجة حازمة :

ـ لم أعد أخافك !

وثبتت عينيها فى ناظرى ، فى تحد ظاهر ، استشعرت منه أنها تستفز رجولتى . . وأنها تريد الوصول إلى غايتها ، من أقصر طريق !

. . وفى طرفة عين ، كنت قد احتويتها بين ذراعى . . **وللحال أدركت سر اختفائها ، والتبدل الذى أصابها واستنهض جرأتها : فقد كانت تفوح منها الآن رائحة . . الخمر !**

***

« . . وصارت تجيئنى كل مساء ، ثملة لاتكاد تعى . . وحين تفيق ، تنهض فى إجفال ـ متجنبة أن يلتقى بصرانا ـ فتشرع فى ارتداء ثيابها وإصلاح زينتها . . ثم تأخذ سمتها إلى الباب متلصصة ، دون أن تنبس بحرف !

«وانقضت ثلاثة أسابيع على هذا المنوال ، لم تشذ فيها ليلة ـ فيما عدا أيام الجمعة التى كانت تتغيب فيها ، متعللة بأعذار مختلفة !

«وذات مساء . . لم تكد تحضر حتى اعتذرت بأنها تحس دواراً ، برغم كونها قد بدت لى أكثر مرحاً وانشراحاً من المعتاد ، ثم انصرفت بعد قليل . . وفيما هى تجتاز الباب ، استدارت إلىَّ ، وتوقفت

برهة ـ وعلى فمها ابتسامة غامضة ـ ثم مضت بغير أن تزيد شيئاً !

«وما كنت لأعلق أهمية على غموضها فى ذلك اليوم ، لولا أن ذلك كان آخر عهدى بها . . فلم أرها مرة أخرى !

***

« . . وعبثاً حاولت الاهتداء إليها ، أو معرفة من هى ، أو تعليل اختفائها المفاجىء ، برغم تقليبى الأمر على مختلف وجوهه . . إلى حد أن شككت يوماً فى أنها قد ماتت ، لولا أن ذكرت وقفتها الأخيرة عند الباب ، فأدركت أنها كانت «تودعنى» . . وأنها خرجت وهى تعلم أنها لن تعود !

« كما أننى عبثاً حاولت فهم سر اقتحامها حياتى من البداية ! . . كل ما أوصلتنى إليه استنتاجاتى ـ من الموضوع كله ـ أن «زوجها» كان يوافيها فى عطلة نهاية الأسبوع ، فيقضى معها يوم الجمعة ، ثم يعود إلى مقر عمله المجهول . . كما أدركت ـ من سذاجة حيلها ، ولجوئها إلى الخمر ـ أنها حديثة العهد بحياة الغواية ، وأنها قد تورطت فى هذه المغامرة على كره منها ، مدفوعة بدافع خفى ، ليس هو الحب . . ولا اللذة . . ولا الانتقام من زوج خائن (وإلا لكانت تكون أكثر جرأة ، وأمعن تلذذاً بالتشفى وهى فى كامل وعيها ، وليست مخمورة) !

«وهكذا لم أترك احتمالا إلا قتلته بحثاً ودرساً ، حتى كدت أصاب بالخبل من فرط تفكيرى فى أمرها ، وشوقى الدافق إليها . . فلقد

أحببتها بجماع قلبى ، ومازلت أحبها . . ولن أنساها ! . . آه لو صادفتها مرة ، وعرفت منها سرها !؟

***

وسكت محدثنا ، منهياً قصته . . ولم يعلق أحدنا بكلمة ، فقد استنفد الراوى مجال كل تعليق . . وفيما هو يهم بالانصراف ، لمحت فى عينيه أطيافاً من الظلال ، هى بعض انعكاسات الرغبة المجنونة التى أيقظتها الذكرى فى أعماقه .

(٣)

كان ذلك فى الشتاء الماضى ، ولم أر الدكتور بهجت منذ ذلك التاريخ . . حتى صادفته منذ أيام عائداً من إحدى حفلات المؤتمر الطبى ، فجلسنا فى شرفة أحد الفنادق . . وفيما نحن نتحدث ، مرقت من باب الفندق الدائرى حسناء مصرية تضع على عينيها نظارة أمريكية أنيقة ، لفتت انتباه صاحبى ، فقلت أمازحه :

ـ ماذا ، أما زلت تبحث عن حسنائك الغامضة . . ربيبة «أبى الهول» ؟

فقال فى لهجة فاترة ساخرة . . كأنما من نفسه :

ـ تعنى شهرزاد ؟ . . لو تعلم ما حدث ، لآمنت معى بأن حواء قد فاقت (أبو الهول) فى غموضها : كنت أزور طبيباً من أصدقائى منذ شهور فى مقر عمله بأحد مستشفيات القاهرة ، حين دخل

«تمـورجى » يرجـوه موافاة مدام « . . بك» فى الردهة ، كى تودعه وتشكـــره قبـل مغـادرتهـا المستشفى . . فخف الـطبيب إلى خارج الغرفة ، تاركاً الباب مفتوحاً وراءه ، وإذا بى أتبين فى « مدام . . » شهرزاد ، بلحمها ودمها ! . . فلم أشعر إلاّ وأنا أقفز من مقعدى هارعاً إليها ، على غير وعى منى . . لكنها لم تكن بمفردها . كان إلى جوارهـا رجل رجحت أنه «زوجها» ، فتداركت موقفى . . لكنها رأتنى ، فاصفر وجهها بغتة ، حتى خيل إلـىّ أن قواها ستخور . . لولا أن استحثها زوجها على الخروج ، مشفقاً عليها من التعب . . فمضت معه ، متظاهرة بأنها . . لا تعرفنى !

« . . وآثرت إخفاء الأمر عن صديقى ، واستدراجه حتى يحدثنى عنها . لكنه لم يحوجنى إلى استدراج ، فقد بادرنى من تلقاء نفسه بمجرد أن عاد من توديعها .

ـ مسكينـة هذه السيدة . منـذ سنـوات وهى تتحـرق شوقاً إلى النسـل ، حتى لأذكر أنها جاءت تستشيرنى فى هذا الشأن مراراً ، آخرها منذ عام ، حين طفرت الدموع من عينيها وهى تصارحنى بأن زوجها لا يفتأ يهددها بالطلاق إن لم تنجب له نسلا . . فأكدت لها أن العائق ليس منها ، بل منه هو . . ولكن يظهر أننى كنت مخطئاً ، فقد فوجئت بدخولها المستشفى منذ أسبوعين للوضع ! . . ولكن الله ضنّ عليهـا بأملهـا فى آخـر لحظة ، فقد تعسرت ولادتها . . فولد الطفل ميتاً !

«وتنهد صديقى فى حسرة ثم قال :

ـ أظنك رأيتها مع زوجها . . وعلى فكرة ، ألم تلحظ أنه شديد الشبه منك ؟

« . . ووخزتنى العبارة ، فقد وثبت إلى ذهنى فجأة كلماتها المماثلة عند لقائنا الأول . . فلم أملك نفسى من التساؤل ، وما فتئت : « ترى هل كان هذا الشبه هو «مفتاح السر» فى المغامرة كلها ؟» .

***

ووجم الدكتور بهجت لحظة ، ثم أردف فى شرود :

ـ حقًا . . إن كيدهن عظيم !

فقلت ، وأنا أتمثل نهاية المأساة :

ـ ولكن كيد الأقدار أعظم !

(نوفمبر ١٩٤٥)

ضـــلال قـــلب

(١)

ـ جلال . . إنك تخفى عنى شيئاً !

ـ دعى عنك هذه الأوهام يا سلوى . .

ـ أوهـام ؟ آه لو تقلع عن عادتـك هذه ! إنـك دائـماً تلجأ إلى «مخدر» قبل أن تسقينى الحقائق المرة ! . . فهلا وفرت على نفسك هذا العنـاء ، وأشركتنى فى متاعبك ؟ . . إنها غالباً تافهة . . إنك دائـماً تغـالى ، وتخلق «من الحبـة قبة» ! . ومع ذلك فإنى لست طفلة ، وقلبى قد نبت فيه الريش ، وصار فى وسعه أن يحمل عنك بعض أثقالك . . جلال ! . . بالله لا تغضبنى . . وتتعبنى !

. . ورقّ نغمها وهى تدلله ، بهمساتها ونجواها . . ثم تناولت رأسه بين راحتيها ، وأدارت وجهه إليها ، كى تقبل ما بين عينيه . . فأيدت نظرته شكوكها ! . . إن سحابة تخيم على حدقتيه . . إنه مهموم !

. . ترى ما الذى يشجيه ؟ . . لو أنه أراح رأسه على صدرها ، وأغمض عينيه ، وأفرغ أساه فى أذنيها . . كعادته ؟

. . لكنـه ظل جامـداً ، صامتـاً ! . . وحـين افـترقا ، وودعته

بابتسامة قلقة ، أحس بنصل يمزق قلبه ـ . . وبأنه ناقم على نفسه ، وضعفه ! . . إنها ثالث مرة يتأهب فيها لمكاشفتها بالقطيعة . . ثم يتخاذل ، فلا يجرؤ ! . . لم يكد يراها مطمئنة ضاحكة ، حتى ثقل لسانه ، فلم يتكلم ! . . لم يقل لها إنه إنما جاء لينعى إليها هواه الرضيع ، ويهيل عليه تراب السلوان . . فإن قلبه ـ هذا المتمرد الصغير الذى بيده زمام الروح ، والراحة ! ـ قد تحول عنها . . واتخذ له قبلة سواها !

لم يقل لها شيئاً من هذا . . لم تطاوعه نفسه على أن يباغت بالصدمة قلبها البكر ، فيطفىء هذا الشغف الحنون الضاحك فى عينيها ! . . فخرج طاوياً سره فى صدره . . لكنه كان ينوى ألا يعود !

. . ومضى فى الطريق المقمر الساكن ، يقتلع خطواته اقتلاعاً ، وهو يحس أنه فى كل خطوة يقتلع قطعة من قلبها . إن المسكينة لم تأت ذنباً ! . . لكنه هو أيضاً لم يرتكب إثماً . إن من حقه أن يفكر فى سعادته ، وعقله يقسم له أنها لن تسعده . . بل إنه ليقسم له أيضاً أنه لم يحببها يوماً حبًّا خالصاً . . ما أحبها إلا بعينيه وحواسه فقط .

أحب فيها حسنها المشرق ، الذى أثمله ، ولمس فيه وتره الحساس : ولعه بالجمال ، واستجابته له أينما كان . . كما تستجيب زهرة (عباد الشمس) لمعبودتها ، وتتوجه بطلعتها أبداً إليها : كلما دارت تدور . . تجذبها إليها النار والنور ! . . إنه بدوره (عبّاد الجمال) ! فتنه فى «سلوى» وجهها الصبوح ، الذى كأنما سوته الطبيعة

فى فجر يوم من أيام الربيع . . وبدنها الغض ، الذى كأنما صاغته أنامل فنان ، والذى طالما ألهب شبابه فيه . . وذكره بقيظ الصحراء ! . . بل لقد فتنه طهرها الحالم ، ودلالها الساذج . . وروحها الوديعة ، كحمامة بيضاء ! لكنه لم يكن قد تبين حين هام بها - كما يتبين الآن ! - أن حسنها لن يكفيه ، وأنهما من عالمين مختلفين : بينهما هوة يحلُو للناس دائماً أن يسقطوها من حسابهم ، ويسموها «فوارق» التعليم والثقافة ! . . أما هو ، فيراها الآن هوة سحيقة بعيدة الغور ، تحرمه من أسمى متع الزواج فى نظره : متعة المشاركة الفكرية والروحية . إنه لن يقنع بغير فتاة ترفعها ثقافتها إلى مستواه ، ويستطيع فكرها أن يحلق فى الأجواء التى يحلق فيها فكره . .

ولقد طالما أوهم نفسه منذ عرف فتاته ، بأن فتنتها كفيلة بأن تغمض عينيه عن تلك الهوة . . تفرش فوقها بساطاً خلاباً زاهى الألوان ، يعينه على أن يعبرها ، ويلتقى وفاتنته وراءها . . لكنه حين رأى قدمه توشك أن تزلّ ، أشفق على هنائه من التردى فيها ، فأجفل فى اللحظة الأخيرة ! . . ووقف يرقبها من بعيد ، ويجالد قلبه وضميره . . وطالت وقفته ، حتى أيقن أنه قد تخفف من هواه ، واعتقل ضميره فى صدره ، فصحّ عزمه على أن يحييها تحية الوداع . . ويعود أدراجه ! . . نعم ، إنه لن يعبر الهاوية التى تفغر فاها فى وجهه ، ويشاركها الحياة ، لن يتزوج من تافهة . . من دمية

«خرساء الفكر» ، لا يؤهلها جمالها إلا لأن تزين البيت . كلا ، إنه يطمح إلى أكثر من هذا . . وقد وجد أخيراً ضالته ! إن «الأخرى» تعده بالهناء المنشود . . لم يكد يقدم إليها فى أحد المجتمعات حتى بهرته شخصيتها ، وداهمه إحساس من ينتقل بغتة من الظلمة الحالكة إلى النور الذى يخطف الأبصار ! . . أحس كأن أفكارها النيرة تنشر حولها هالة من الضياء ، تغمر جلساءها . إنها جامعية ممتازة ، خلابة الحديث . . تقرأ ، وتفكر ، وتسامر ، وتتصدر المجتمعات ، وتدير دفة النقاش فى كل موضوع ، ببراعة استهوته ، وأشعرته بأنه قد وجد المرأة التى تنعكس فيها جميع أحلامه . . ولكنها أشعرته أيضاً بإحساس آخر ، لم يخل أول الأمر من غضاضة : أحس بأن «الصورة» الأولى التى طالما خلبه رواؤها ، قد فقدت ألوانها فجأة . . وغدت ـ إلى جانب هذه ـ باهتة الشخصية ، مطموسة الظلال ! . . بل أحس بعمق الهاوية التى كان مسوقاً إليها . . فشكر للأقدار أنها أنقذته منها قبل فوات الأوان ، بأن وضعت «هذه» فى طريقه . . !

. . ولكن «طيفه الجميل» لم يضع سلاحه ويسلم بسهولة : فظل قلبه مسرحاً لعراك طويل احتدم فيه بين الفتاتين ، حتى انتهى أخيراً بهزيمة الأولى . . فاحتلت «درية» قلبه ، بعد أن أجْلت عنه غريمتها ! . . وعندما أيقنت من النتيجة ، وأثملها النصر ، قبلت أن تلتقاه الليلة ـ لأول مرة ـ لقاء غرام !

وأفاق جلال من خواطره ، وقد بلغ مكان اللقاء . .

(٢)

ـ درية ! . . لقد مضت ستة أشهر وأنا أراك تزدادين تعلقاً بالنادى يوماً بعد يوم . . النادى ، النادى دائماً . . ولكن ، أيبلغ بك الأمر أن تطلبى تغيير موعد لقائنا غداً كى تذهبى إلى النادى ! أما تكفيك بقية أيام الأسبوع ؟

ـ أوه ، إنـك عصبى اليوم . . أو تريد أن تفـوّت علىّ محاضرة البروفسور (. .)؟ . . ومـع ذلـك ، أى فارق بين أن نلتقى فى الصباح أو بعد الظهر ؟

ـ الفكرة هى التى تحنقنى . كنت أفضل أن أسمعك تعتذرين بموعد مع الخياطة ، أو الحلاق !

ـ أنت تقول هذا ؟ . . لكأنى أسمع جاهلا يتكلم ! . . إن آراءك قد تغيرت !

ـ بل قولى إن أوهامى قد تبددت . . بددتها أنت !

ـ لست أفهم ماذا يضيرك فى ذهابى إلى النادى ! ؟

ـ البيت هو مملكة المرأة . . وأنت لا تلمّين به إلا فى أوقات الطعام والنوم !

ـ أو تريـد من مثلى أن تطيق البقاء فى البيت ، وتشنيف أذنيها بصياح الأطفال ؟

ـ أطفال ؟

ـ أطفـال جارتنـا . مسكينـة اعتـدال ! إنها تعيش فى جحيم لا يطاق ! تصـور أن لها طفلين ، وهى لم تتـزوج إلا منـذ خمسـة أعوام ! . . إن زوجها لا يريد أن يشبع من «أكبادنا التى تمشى على الأرض» . . أعـوذ بالله ! . . لكأن المرأة لم تخلق إلا لتكون آلة : تحمل ، وتضع ، وترضع ، وتطبخ . . إلى آخر هذه التوافه ! ياويل الـزوجـة فى مصر من عقليـات الأزواج . . لكن الـذنب ذنب اعتدال . إنها لا تخالف لزوجها رغبة ، أيًا كانت . . تطيعه فى كل شىء طاعة عمياء . . كالنعجة !

ـ الطاعة أجمل ما فى الأنوثة . وضعف المرأة هو كنزها الذى يفوق اللآلىء . . (فى مرارة) بدأت أرثى لك !

ـ وأنا ضقت برجعيتك . . إنك . .

لكنه بادر إلى تحويل دفةالحديث ، وقلبه ينضح مرارة . لم تكن تلك أول مرة تصدمه فيها آراؤها . . لكنه اعتزم أن تكون الأخيرة ، فإن الثورة المختمرة فى أعماقه كانت قد آذنت بالانفجار ، وشوقه إلى «التحرر» من حبها قد صار لهفة مضنية . . لم يعد يحتمل ثرثرة هذه المخلوقة التى لا تفهم الحب ، والأمومة ، وسائر عواطف النساء . . هذه الأنثى التى أفقـدهـا أنوثتها انطلاقها فى مضمار الرجال ! إن عاطفته قد نضبت منذ علق بها !

. . واشتدت عليه وطأة البلبلة ، فاعتزم أن يضع لآلامه النفسية حدًّا : صارحها ذات ليلة بالقطيعة ، وقلبه يرقص فى صدره ، فرحاً

بالخلاص ! . . وأحس للفور أنه قد تخفف من حمل ثقيل .

. . إن رجولته لا تطيق غل الاستكانة لتمرد امرأة ، تناقش اراءه وتخطّئه ، وتلتحم شخصيتها مع شخصيته ، فى كل مناسبة ، التحام الند للند ! إن لذة الرجل القصوى أن يمارس مع المرأة إحساسه بالتفوق ، وإحساسها بالضعف . فى هذا إرضاء لرجولته ، وإشباع لأنوثتها . . الأنوثة الفطرية التى ترحب بالقيود ، وتكره التحرر والانطلاق !

. . وقد منحته سلوى كل هذا بوحى من فطرتها ، السليمة من الزيف . مازالت تدفئه نظراتها الساخنة التى كانت تسكب فيها كل قلبها . . لكم هو مشوق إلى حنانها الدافق . إن حنان المرأة هو ـ لقلب الرجل ـ ماء الحياة ! ولكم يضنيه الحنين إلى حبها الساذج وقلبها الكبير ، الذى يحنو على قلبه دون أن يشكو ، ويفهم مطالبه دون أن يطلب . . من له بنغمها الناعم الحلو وهى تجيبه ، كلما سألها رأيها فى أمر : « كما يروقك . . الرأى رأيك » . . بل لكم هو مشوق إلى دموعها ! الدموع التى تفيض من قلب سخى بالعواطف ، والتى طالما استقى منها كبرياؤه ، وأنمت فى أعماقه جذور اعتداده بنفسه ، وجلده على الكفاح ، واحتماله للشدائد !

. . لكن المارد الذى خلقته منه ، قد أحالته الأخرى قزماً ، يشفق من الصعاب ولا يقوى على شىء !

. . فمن له بها ؟ إنه بحاجة إليها ، كيما يسترد إيمانه بذاته ، وحبه

للحياة . . لكن ، ترى أهى ما تزال تذكره ؟ وبماذا ؟ بالغفران والحنين ، أم بالحقد الدفين ؟ . . لكنه يعرف قلبها ، لا يقوى على أن يحمل ضغناً لإنسان !

***

وكانت قد مضت أيام ، أحس بعدها أنه قد اغتسل وتطهر من هواه البغيض ، للأخرى ! . . فخرج ذات مساء ، ووجهته : بيتها ! إن قدميه تعرفان الطريق ، وإنهما لتخفقان فوق أرضه خفقات طروبة ، كأنما هما مشوقتان مثله إلى الحى ، والديار ! إن قلبه ليضطرب فى صدره حنيناً ، وفَرَقًا من اللقاء . . إنه عائد إلى سلواه !

وأرسل الانفعال الدموع إلى عينيه ، فجففهما بأنامله ، ومضى يغذّ السير . . لكأنه لا يمشى على أرض ، وإنما يطير على بساط من سحاب . . وبرغم ذلك فقد طال الطريق !

. . أخيراً بلغ بيتها !

(٣)

ـ جلال ! . . أهذا أنت ؟ كدت لا أعرفك . . وما هذا النحول الذى أصابك ، والذبول الذى أرخى أجفانك . . ؟

ـ وأنت يا سلوى ، ما بال الشحوب قد تخطف ورد خديك . . وأطفأ بريق عينيك ؟

ـ إننى بخير . ولكن قل لى ماذا دهاك . . . أبلغ بك الإجهاد أن تنسى نفسك ؟

ـ إنى متعب يا سلوى . قلبى قد غوى ، وأضلنى معه . . لكنه عاد نادماً ، فهل تقبلين توبته ؟

ـ وهذه الدموع ! . . أما تخجل ؟

ـ إنها دموع الفرح . . لا أصدق أنك تبسمين فى وجهى . . يخيل إلىّ أنها محض رؤيا جميلة . . سلوى !

ـ صه ! دعنى أجفف دموعك . . بشفتى ! . . جلال . ضمنى إلى صدرك . قل إنك لن تتركنى . . مرة أخرى !

ـ اطمئنى يا حبيبتى . . كان لابد للطير أن يعود إلى وكره ، ليحمى أنثاه الضعيفة . . ويريح رأسه على صدرها الحنون !

(يناير ١٩٤٦)

عيون حالمة

فى معرض للتصوير ، وقفت منذ أيام أتأمل صورتها طويلا . .

وفى دليل المعرض عثرت على العنوان الذى أطلقه عليها مصورها : «عيون حالمة» ، تصوير «فريد» . .

يا للمسكين . . إنه ما يزال يذكرها !

***

عندما عرفنى به صديقى الدكتور شاكر ، لمحت فى عينيه أنه يتألم . كان الملل من الحياة ناطقاً فيهما يتكلم ، ويقول : إن المسكين يحيا ، ولكن برغم إرادته !

وحركت نظراته فضولى الفطرى ، وميلى إلى دراسة الوجوه والنفوس . وددت لو أصل إلى أعماق هذا الفنان الشاب ، لأسبر أغوار نفسه . .

ومرت الأيام . . حتى اقترح علىّ الدكتور شاكر ذات مساء ، أن نمر على «فريد» كى يلتقط لنا صورة . . وطال بقاؤنا فى الأستوديو إلى ما بعد مواعيد العمل ، فجلسنا نسمر ونتحدث ، فيما يروق الحديث فيه عادة ، بعد إجهاد العمل طوال اليوم . وتشعب بنا الكلام إلى بحث ألوان العواطف التى يفرزها القلب البشرى . .

وحلا للدكتور شاكر أن يداعب صديقه ، فقال :

ـ دعونا من هذا ، وحدثنا أنت يا سيد فريد عن اختباراتك واسعة النطاق . ترى كم أحببت من هؤلاء الفتيات الجميلات اللواتى تزين صورهن جدران الأستوديو ؟

كيف أصف أثر هذه الدعابة فى نفسية فريد ؟ لقد قابلها أول الأمر متكلفاً ضحكة استهتار ساخرة ، ثم ما لبث أن شرد منا فترة ، بدا فيها كأنما يجمع شتات نفسه ، وبدت نظراته كأنها آتية من بعيد . . حتى تنبه أخيراً إلى أن انتظارنا قد طال ، وأن أسماعنا معلقة بفمه ، فقال :

ـ أكنت تمزح يا شاكر ؟ يا بختك ! لقد كنت يوما مثلك ، حرًّا طروباً بلا قلب ، أعشق كل امرأة فاتنة ، كما أحب كل زهرة عطرة ، أو فاكهة شهية ، أو صورة جميلة ! . . وعشت هكذا أعواماً ، متوهماً أننى قد عرفت الحب مرات ومرات ، وأننى ـ دون الناس ـ قد أفلحت فى الاستمتاع به مجرداً عن سائر قيوده وأشواكه ! . . وكم سخرت من أشجان الهوى ، وكم هزأت بنزوات المحبين ! . . ولكن « كريمة » بدلت كل شىء . . إننى حين أفكر فى حاضرى ، وتقسو على قلبى آلامه ، أتمنى لو أننى لم أعرف الحب ، ولم أعرفها ! وأجدنى أحن إلى نسمات « الميل » الهادىء الذى كنت أحسبه «حبًّا» ، والذى طالما نعمت به قبل أن تبدده العاصفة . . نعم ، ولكننى لا ألبث أن أقتلع الندم من جذوره حين

تشتعـل فى حسى نشوة السعادة الدافقة التى غمرتنى بها كريمة ، فأحس أن آلامى قد غدت شفافة ، تسمح لى بأن أعيش وراءها فى الماضى القريب ، قانعاً بأن أجترَّ اللحظات الخالدة التى نفحنى بها حبها . .

***

. . كنا دائماً نلتقى فى مشرب للشاى ، قريب من هنا ، ثم نخرج إلى إحدى الضواحى الهادئة : صحراء هليوبوليس ، أو الهرم ، أو ضفاف النيل فى الجزيرة . . ونسير متلاصقين نتهامس ، أو ننصت للطبيعـة وهى تهمس بأحـاديث الجـمال والسحـر والحب . . حتى نتعب ، فنجلس على أحد المقاعد الخشبية المتناثرة ، كى تغنى لى كريمة بصوت خافت سماوى أغنية رقيقة من أغانى الراديو أو الأفلام المحببة إلـىّ ، وأنا أهيم فى عينيها الحالمتين اللّتَين كانتا تحكيان لى فى كل جلسة حلماً جديداً ، وأملا أعذب من نسيم الفجر ، مسكراً كعطر الربيع ، ناعماً كأوراق الورد ، وكبشرة خدها الخمرى . .

* وكم كان خدها حلواً ودافئاً على الدوام . كلما نظرت إليه كنت أحس كأنى ألصق وجهى بوسادة من الريش ، مكسوة بالحرير !

. . وبقـدر ما كانت الـوسـادة ناعمـة ، كانت اليقـظة دائـماً ترعبنا . . كُنا نخشى أن نفيق ، ونشفق من الفراق ، فنراوغ . . ونظل نراود الدقائق عن سيرها ، ونتملقها أن تقف ، ليطول لقاؤنا ويبقى أيضاً . . ولو لحظات !

. . آه ، كيف يجترىء أحد على أن يتهم الحب بشرّ أو خطيئة ! إن قلبى ـ الذى كان قبل أن تملأه كريمة لا يعبد غير ذاته ، وغير الشيطان ـ قد غدا منذ عرفتها متبتلا ، يخر فى صدرى كلما لقيتها ، ساجداً لله فى خشوع ، شاكراً للسماء أنها وهبته حاضره السعيد . . متعبداً لها كى تديمه عليه .

. . وكما علمنى الحب الشكران ، علمنى الإحسان ، حين كنا نتمشى ذات مغرب جميل ، ومررنا بمتسول ضرير كان يحاذى سور إحدى الحدائق الأنيقة ، وهو يتلمس قضبانه بأصابعه المرتعشة ، وفى يسراه عصاً يدق بها على الأرض دقات واهنة كجسده الهزيل ، الذى خيل إلىّ أن منظره كان الغصة الوحيدة فى حلوق سادة المنزل وهم يتناولون الشاى فى الحديقة فى استرخاء ، كأنما يستجمون من عناء الراحة ! . . ورقّت كريمة لمرأى الضرير ، فضغطت على ذراعى وهى تقول بصوت ذاب فيه الإشفاق والحنان :

ـ أترى يا فريد هذه المفارقة الأليمة . . هذا السور الذى يفصل بين النقيضين : فى الخارج أعمى جائع ، حافى القدمين ، بالى الثياب ، حرمته الدنيا كل شىء . . وفى الداخل ورود وعطور ، وسلم من رخام ، وقصر يضيق بالمقاعد المريحة والفراش الوثير ، ومخازن الثياب ، والطعام الشهى ، والحياة الناعمة . . ترى ماذا جنى هذا التعس أو جنى أبواه ، وماذا أتى أولئك من أفضال ؟

. . وقبل أن تسترسل كريمة فى خواطرها ، وجدتنى أسخو على

الضرير بالعطاء ، وأسارع معها بالابتعاد . . فقد أحسست بقلبى يرق حتى ليضنينى ، أنا الذى لم أكن أفهم الألم ، أو أقدر الحنان ، والغفران ، والبر ، والتسبيح . . وعشرات غيرها من المعانى الرقيقة وإحساسات الناس التى ألهمتنى كريمة أن أراعيها ، وهى ترعانى بنظراتها الساخنة التى كانت تنضح بالعاطفة ، حتى لتكاد تعطينى فى كل نظرة . . قلبها بأكمله !

. . آه . . لماذا خلق الله لنا ذاكرة ، تعى ظروف الألم أكثر مما تعى ساعات السرور ؟ . . إن ذاكرتى كثيراً ما تتجاهل البداية السعيدة لقصتى ، ولكنها لا تعفينى لحظة من مرارة النهاية . . فقد غابت عنى كريمة يوماً ، فأياماً ، تبينت خلالها قسوة ما كانت قد فرضته علىّ من الجهل التام بكل ما يمكننى من لقائها كلما أردت أنا ، لا هى !

. . وهكذا بقيت حائراً ، أنتظرها كالمجنون ، ثلاثة أسابيع . . حتى وصلتنى منها هذه الرسالة ، مبللة بالدموع :

« يا فريد . . أعلم أنك لن تغفر لى هذا الغياب الطويل ، فكيف لو علمت أننى لن أعود ؟ . . لقد خدعتك يا فريد . . أخفيت عنك أننى إنما أحببتك لكى أنتقم لكرامتى من الرجل الذى هويته فانصرف عنى ، أو ظننت أنه فعل ، حتى عاد منذ أيام ليخطبنى ، نادماً مستغفراً . . فصفحت عنه ، بعد إلحاح قلبى الذى لم يكن قد نسيه ! . . فاغفر لى يا فريد أننى . . سأتزوجه ! أو

فحاول أن تكرهنى وتنسانى . . الوداع يا فريد !» .

وفرغنا من الرسالة والتفتنا إلى فريد ، فإذا الدموع تهيم فى عينيه ، فى حين تهيم نظراته فى عينيها هى ، وهو يتأمل صورة كبيرة لها كانت بين يديه !

***

قلت للدكتور شاكر ، ونحن نسير معاً فى شارع قصر النيل قبيل منتصف تلك الليلة ، بعد أن ودعنا فريد :

ـ إنك قد اضطربت حين رأيت صورة كريمة . . تُرى هل كانت لها قصة معك أنت الآخر ؟

قال :

ـ نعم ، ولكنها قصة من نوع آخر . . فقد تذكرت هذا الوجه . . إنها قد كذبت عليه ، كى يكرهها وينساها ، فى حين لم يكن خطيبها إلا . . الموت ! . . لقد رأيتها قبل زفافها إليه بساعات . كان يترصدها فى إصرار ، ليأخذها معه . . لعلك فهمت أنها كانت مريضتى ، فقد لبثت أكافح (التيفود) ثلاثة أسابيع ، ولكن الموت غلبنى واستأثر بها . وقبيل وفاتها ، كنت أعودها ، فانتهزت فرصة خلو الغرفة من أهلها ، وطلبت إلىّ وهى تبكى أن آتى لها بورقة صغيرة كى تكتب كلمة وداع ، لرجل . . بعد أن رجتنى أن أصون سرها عن ذويها !

وسكت الدكتور شاكر ، وكان الترام قد وصل ، فمضى . . ومضيت . .

***

ومضت شهور . . حتى وقفت منذ أيام فى معرض التصوير ، أتأمل صورتها طويلا .

ومر بخاطرى فريد . . يا للمسكين ، إنه لا يعلم أن العيون الحالمة قد كفّت عن أن تنسج الأحلام ، وأنه لم يبق منها إلا هذه الصورة الراقدة فى إطارها الأسود ، الذى تراءى لى ـ وأنا أبتعد ـ كأنه « نعش » ، قاتم ، بغيض !

(نوفمبر ١٩٤٣)

obeikandl.com

نـــادية

(١)

النهار قد أوشك أن ينطفىء ، وضياؤه قد بدأ يبهت فى الفضاء العريض ، ويذوب ذرة فذرَة فى الظلام . . والسيارة ماضية بهما ، تتلمس سبيلها على هَذْى الظل المزيل الباقى من الضياء ، وتتعثر فى الأشباح الباهتة المتتابعة التى ألقتها أمامها ـ على أرض الطريق ـ كتل المبانى الصماء . . وجذوع الأشجار . . وأعمدة المصابيح المطفأة ، التى لم يكن النور قد صعد بعد إلى عيونها الزرقاء [١] . .

. . وكان شبح الصمت الأخرس قد ضاق بنفسه ، وبالموت ، ونهشت الغيرة قلبه ، فخرج من حيث يقطن بين القبور ـ فى هيئة أحدب كريه ـ يسعى إلى أرض الأحياء ، ليتصيد عاشقين يندس بينهما كعادته ، متطفلا على خلوتهما ، كأنما يَنْفِسُ على المحبين نجواهم ، ولا يعبأ بما سيكون من حسابه العسير مع آلهة الهوى ، جزاء ما اقترف من آثام !

ولاحت له السيارة ماضية بـ «نادية» و«سامى» ، تتحسس

---

(١) كانت مصابيح الشوارع مطلية باللون الأزرق ، أثناء الحرب العالمية الثانية

طريقها وتتعثر ، فانسل إلى داخلها حيث يجلسان ، وقبع بينهما يرهف سمعه لنبضات قلبين جاشا بالعاطفة ، فتحررا من صاحبيهما ، وراحا يعدوان . . كل على هواه : قلبها يسبقُها إلى الأمام ، ويطوى الطريق ، متعجلا الوصول . . وقلبه هو يشده إلى الوراء ، متخلفاً عن الركب ، باسطاً ما انطوى من الطريق الذى قطعاه . .

وغاب سامى عن نفسه ، وصرخت نفسه فيه :

«أمـا ترى يا سامى : هذا الكيان النـاعم . . هذا الجبـين الوضىء ، والنظرات الوادعة ، والشفاه ؟ تأمل «نادية» يا سامى ، وتمـلّ من شبابها النضير ، فها هى ذى أخيراً إلى جوارك ، فى هذا الثوب الفاتن الذى طالما حلمت بأن يلمس كتفك ، فتسمع حفيفه ناعماً قرب أذنيك . . ها هو ذا حلمك العذب قد تحقق . . فما أسعدك ! »

وصرخ سامى فى أعماقه : « كفى بالله يا نفسى . . اصمتى ! »

(٢)

ومضى صوت يهمس له :

« . . إنك لتذكر يا سامى أول مرة استراح فيها بصرك المتعب على هذا الجبـين الـوضىء ، والعيون الـوادعة ، والشفاه . . كنت قد دعيت لتنـاول الشـاى عند أسرة صديقة ، فترددت . . ثم أجبت

الدعوة فى فتور ، فإن روحك المضناة كانت ما تزال تلهث ، عقب مطاردة عنيفة للهناء .

«الهناء ؟ . . ويلك يا سامى من هذا الظبى ، الشارد أبداً من الإنسان . . إن متعته الكبرى أن يقسو فى مداعبة مطارديه ، فيتباطأ ويتمهل ، حتى إذا ما قاربوه ، وهموا باقتناصه . . أطلق فجأة لجموحه العنان ، وراح يسابق الريح . . تاركاً عشاقه يخورون ، ويسقطون صرعى وهْم كاذب . . وأمل قد خاب !

« وكنت يا سامى واحداً من صرعاه ، سقطت تتلوى على أثر حب فاشل قديم ، اعتصرت فيه عواطفك وأعصابك مدى عامين كاملين ، حتى خاب ، ففطمت قلبك عن هواه ، وصفدته بأغلال الرجولة والكبرياء . . ثم نجحت فى أن تقتل إيمانه ، فكفر بالمرأة وبالحب ، واستكان لحرمان طويل . . ورحت تنشد السلوى فى العمل المتواصل ، فخصصته بكل وقتك ، وجهدك ، ونسيت أن فى الدنيا غير التعب والجهد . . ونسى قلبك الانفعال !

***

«حتى أستراح بصرك ـ وأنت تتناول الشاى فى منزل الأسرة الصديقة ، مع نفر مختلط من المدعوين ـ على هذا الجبين الوضىء ، والعيون الوادعة ، والشفاه . . وداعب سمعك صوت «نادية» وضحكتها الناعمة وهى تخطو إلى الصالون ، معتذرة عن تأخرها لصاحبة الدار . . فانتشيت يا سامى ، كأنما براحة خفية ، وتملكك

انتعاش غريب . . وكما تقلب اسطوانة على وجهها الآخر ، تغيرت الدنيا فى عينيك : أحسست فجأة أنها دنيا جميلة وعذبة ، إلى غير حد . . وأن عروقك تنبض بالحياة ، والقوة ، والشباب الذى لا يعترف بالصعاب ، ولا يقف بينه وبين غايته شىء !

« . . ولو قيل لك لحظتئذ أن فى الحياة أحزاناً وكروباً وآلاماً ، لرثيت لغيرك ، وهزأت بالخوف ، فقد شملك إذ ذاك اطمئنان غريب ، ويقين بأنك فوق متناول تلك المكاره ، أو غيرها مما يصيب وينغص الناس . . !

. . كيف تفسر يا سامى ما أصابك ؟ وتلك الانفعالات البهيجة الخاطفة التى اختلطت وتتابع حشدها العجيب على خاطرك ، فى طرفة حس ، فى أقل من لحظة ! (كما أدركت ذلك على الفور عندما تبينت أنك قد بلغت قمة الانشراح ، قبل أن يجىء دورك فى مصافحة يد الضيفه القادمة . . اليد التى مدتها إليك وهم يقدمونك إليها بين كلمات التعريف المألوفة) . . ؟

« . . وكم تراخت تلك اليد واستكانت طويلا فى يدك ، عندما بدأ الرقص بعد حين ، فمنحتك نادية خصرها فى بساطة ، دون دلال بغيض أو اعتذار كاذب . . ورحتما تدوران على الأنغام الناعمة لأغنية «الحمامة العاشقة » ـ «لا بالوما» ـ التى كان الراديو يبعثها عذبة حنوناً ، كنظرات نادية إذ ذاك . . نظراتها التى تعلقت بفمك ،

متسائلة فى صمت عن سر صمتك ، أنت الذى تفرض عليك اللياقة أن تبدأ الحديث !

«ولكنك كنت تحلم يا سامى ، فأطال الصمت مقامه بينكما . وكم كان عذباً ومحبباً حينذاك ، وهو فى قناع طيف باسم يحدب على المحبين ، ويبارك أحلامهم !

« . . وأفقت من حلمك يا سامى بعد حين ، عندما استأذن الصمت منكما فى الرحيل ، على صوت نادية تسألك :

ـ ما بالك ؟

« فأجبتها معتذراً :

ـ لا شىء ، لا شىء . . سوى أنى سعيد ، أكثر من اللازم ، فقد كنت أحلم !

ـ تحلم ؟ . . وبم ؟

ـ بعشّ جميل على النيل فى العراء ، مفتوح للرياح والطيور والضياء . .

« ثم أضفت فى سرك : «ولك أنت » ، فقد أشفقت أن تقولها لها قبل الأوان ، فتلومك نادية . . ولو فى ضميرها !

« . . وماجت الأنغام ، ورقّ هديل «الحمامة العاشقة » ، كأنما الوجد قد أضناها فذابت لهفة على أليفها الذى فارقته ، عندما هبطت إلى الأرض كى تغرد للبشر التعساء . . ورقّ بين يديك الكيان الناعم الذى كنت تراقصه ، والذى ما كان يشعل البدن بقدر ما كان يشعل

الوجدان والروح . . ورقّت روحك بدورها ، فانفلتت نظراتك منك لتلثم الوجه الوديع الذى يطالعك . .

«وماجت مشاعرك مع النغم ، فغبت عما حولك يا سامى ، سابحاً فى ذلك المحيط العميق ، المتلاطم المشاعر والخلجات ـ محيط نفسك ـ وغصت فى أعماقك تبحث عن لآلىء غالية ، جديرة بهذا الجيد الفاتن الذى أمامك ، كى تقدمها مهراً إليها . . وتطارد الأحياء السامة التى لا تخلو منها قاع نفسك ، كى تقتلها قبل أن تدعو نادية إلى حياتك . . وكم يذكى فيك الحسن الرفيع من طموح وتوثب يا سامى !

«وعندما خَفَت هديل الحمامة الوهى ، وهى تودع الأرض لتطير إلى عشها السعيد ، وأليفها ، تضرع إليك قلبك فى مذلة ، أن تطلقه ليغنى هو الآخر لأليفته . وبرغم أنه كرر توسلاته طوال الأمسية ، وأنت تراقصها مراراً . . وبرغم أنه بكى فى صدرك وهو يؤكد لك أنه قد سمع صدى لنبضاته فى قلبها ، وأن الفتاة ـ على الأقل ـ لم تستبشعك . . فإنك نهرته ، وخرجت ليلتها يا سامى فخوراً بالكتمان ، مدثراً هواك الوليد فى أكثر من قماط !

«وحين طالعك الطريق السابح فى الضياء الساجى ، وعدك القمر بأن يبارك حبك ، وأحسست بيد رقيقة تمتد فى رفق إلى قلبك الحبيس ، لتفتح فى سجنه كوة ، تدفق منها سيل من النور الناعم ، أغرقه فى الهناء ، وبعث فيه إيمانه المفقود . .

. . ولما لمحت سيارتك رابضة تنتظرك أمام الباب ، ككلب أمين ، ربتّ بيدك عليها فى رفق ، موصياً أخاك أن يعود بها . فإنك تؤثر العودة على قدميك . .

. . ثم سرت فى الضياء !

(٣)

«ونما هواك الوليد ـ يا سامى ـ فى القماط ، ورحت ترضعه من نظرات نادية ، كلما صادفتها فى منزل الأسرة الصديقة بين الحين والحين . . ومضت أسابيع وأنت فخور بالكتمان ، قانع بأن تزود عينيك من محياها الوضىء ـ وأنت تراقصها فى كل مرة ـ بما يكفيك أياماً ، حتى يتكرر اللقاء . . وكلما تململ قلبك ، ولامَك على جمودك ، أمهلته بحجة معسولة ، طالباً فرصة أخيرة . . فى كل مرة !

« . . حتى كان ذلك اليوم المشئوم . . السعيد . . كنت فى بهو منزلك بعد الغداء ، مستلقيًا على مقعد طويل ، يتجاذبك تخدر لذيذ ويقظة هانئة ، وتحلم بأثاث بهو العش الذى سيضمك مع نادية فى المستقبل السعيد ، وكأنها إلى جوارك تنسج لك صداراً من الصوف . .

« . . ودق جرس التليفون . . فأمسكت بالسماعة فى تراخ ، متسائلا عمن هناك . . ؟

«لماذا يا سامى تختار الحياة دائماً لضربنا فى الصميم ، بمطرقتها

القاسية ، الوقت الذى نبلغ فيه قمة الرضا عنها . . وتضحى قلوبنا أبعد ما تكون عن توقع الصدمات ، والتهيؤ لدفعها ؟ . . ألأنها حسود ؟ أم أنها تخشى أن تفيض بنا السعادة ، فننسى أننا من التراب ، ونتجبر ؟ . . إنك لا تدرى ، وإن كنت تذكر ما حدث وأنت تضع السماعة على أذنيك . . لقد تبينت الصوت الحبيب ، على غير انتظار ، فهتفت من فورك :

ـ نادية ؟

ـ نعم ، أهذا أنت يا . . فتحى ؟

«ووجدت نفسك يا سامى ترد بالإيجاب ، دون وعى ، منتحلا شخصية أخيك الأصغر . . ثم سمعتها تقول بصوت يغلب عليه الحنان :

ـ لماذا لم تحضر حفلة الأمس . . أما وعدتنى ؟ لقد انتظرتك طويلا !

«واعتذرت لها يا سامى بكلمة رقيقة ، وتحجرت فى عينيك دمعتان . . إذن فهو أخوك من . . اختارته ؟

« كيف لم تفكر فى هذا من قبل يا أحمق ؟ . . لقد عرفتماها فى أمسية واحدة ، فلماذا بربك تأخرت ؟

(٤)

« . . والآن يا سامى ، أما تتملى من هذا الشباب النضر : هذا الجبين الوضىء ، والنظرات الوادعة ، والشفاه الحالمة ، والجسد

الناعم ؟ هاهو حلمك السعيد قد تحقق ، وها هى نادية أخيراً إلى جوارك ، فى ثوبها الفاتن ، الذى طالما حلمت بأن يلثم كتفك ، فتسمع حفيفه قرب أذنيك . . فقط ، أوص قلبك بأن يخافت من دقاته قليلا ، وأنصت لدقات أخرى . . أما تسمع دوى الطبول فى أذنيك ، والموسيقى تعزف من بعيد ؟ . . كلا ؟ إذن فلتصبر قليلا ، فإن الهواء لن يلبث أن يحمل إليك أنغامها ، مترفقاً . . إنكما تقتربان من منزلك ، حيث ينتظركما الزحام الطروب ، والهرج والغناء ، وموائد الوليمة . . وحيث فتيات الشرف ينتظرن مقدم العروس . . نعم ، فالليلة ليلة الزفاف يا سامى . . زفاف نادية وزفافك !

« . . ولكن تمهل ، لا تفرح إلا بقدر ، فإنك المنبوذ ! . . إن نادية ستزف بعد لحظات ، إلى فتحى . . أما أنت فستزف ولكن إلى الحرمان يا سامى ، فإن القمر الذى وعدك أن يبارك حبك ، قد احتجب . . ! كأنما أخجله أن يخلف الوعد !

« . . وحتى رفقتك السعيدة لنادية ، التى بدأت عند منزلها ، ستنقضى سريعاً ، عند باب منزلك ، حين تسلم الوديعة الغالية إلى صاحبها ، ويأخذ فتحى منك نادية ، إلى الأبد !

« . . والقبلة التى طالما منّيت بها شفتيك . . ستنالها أخيراً الليلة ، بعد الزفاف ، ولكن على «جبينها» الوضىء !

« تجلّد يا سامى ، واعذرهما ، فإنك الملوم . . وانطواؤك هو الذى دمرك ، وسيدمرك ما لازمك . . إنهما يجهلان سرك المكظوم ،

فادفنه يا سامى ، ادفنه إلى الأبد . . ودَعْ نادية فى جهلها السعيد ، فإنها طيبة ، وقلبها لن يتحمل أن يسعد لتشقى ، أنت أو غيرك . . وكبرياؤك لن يقبل منها نظرة « عطف » أو «رثاء » !

«فـلا مفـر إذن : أغلق قلبـك على هواك المـوءود ، وأعده إلى محبسـه . . فإنـه قد خلق للهـوان ، واعتاد الألم . . ولن يلبث أن يتبلد ! . . فقط ، ساير كبرياءه ، أوهمه أنك لا ترقبه ، وشجعه على أن يغسل شجنه فى البكاء . . وابك أنت معه ، ولكن فيما بعد . . أما الآن ، فتجلد يا سامى ، وارفع رأسك ، وابتسم . . للحمامة الوديعة التى توشك أن تطير ، إلى عشها السعيد !

(٥)

وانسلّ آخر خيط من الضياء من قلب سامى ، تاركاً الظلام يطبق عليه ، كما أطبق على الفضاء العريض . . ومضت السيارة بهما تطوى الـطريق ، على هدْى مصباحيها المضيئين ، بعد أن استراحت من أشباح المبانى ، والأشجار ، والمصابيح القائمة على جانبى الطريق ، إذ كان الـظلام قد ابتلعها جميعاً ، مغرقاً الطريق كله تحت أنفاس شبح واحد عريض !

***

. . ولم يدر سامى إن كان قد طال الزمن أم قصر ، قبل أن يتبين الشبـح الأخير ـ شبح الصمت القابع بينهما ـ إنهما ليسا بعاشقين ،

وإنه قد أخطأ الهدف . . فلاذ بالفرار ، على صوت نادية تقول ، وقد أفاقت من تأملاتها فى الغد السعيد :

ـ ماذا يا سامى . . أما تريد أن تقول لى شيئاً . . ما بالك صامتاً ؟

فأجاب كالحالم :

ـ لا شىء . . **لا شىء يا نادية ، سوى أن الهناء قد فاض بى ، عندما رأيتك فى هذا الثوب الأبيض ، الناصع كقلبك !** . . ها قد وصلنا ، فابتسمى يا نادية ، للسعادة التى تنتظرك بين ذراعى . . فتحى !

. . وابتلع دمعتين ، كانتا فى طريقهما إلى عينيه !

(يونيه ١٩٤٣)

العيون السوداء

(من يوميات شاب حالم)

(١)

٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٦

لا جديد ! . . وماذا يمكن أن يجدّ فى حياة موظف بسيط ، يزامل الوحدة فى مسكنه بإحدى عمارات (الجيزة) ، قريباً من عمله ؟

إن الأيام تمرّ بى متشابهة ، فقد أضحت حياتى قاتمة خاملة ، ليس لها طعم ، ولا روح . . ولا غاية .

إننى حى . . ولكننى لا أعيش !

٢٧ أكتوبر

خطرت لى اليوم فكرة مبتكرة بشأن كهربة خط حلوان . فكرت أن أعرضها على المختصين فى الوزارة ، لعلى أنقل إلى القسم الفنى ، بدلا من عملى هذا الذى لا صلة له بدراستى السابقة . .

ولكنى عدلت . . .

لقد ألفت حياة الخمول والتواكل التى أحياها !

أول نوفمبر

مالى تذمرت !

كنت ذاهباً أمس إلى المقهى ، فلمحت فى «فترينة» أحد محال الأسطوانات عنوان لحن استوقف نظرى . وقفت جامداً أحدق فى اسطوانة «العيون السوداء» Les Yeux Noirs ، ذاهلا عن المطر الذى بلل معطفى ، ثم تنبهت أخيراً على صوت باب المحل وهو يغلق ، فأسرعت بالدخول . . وابتعت الأسطوانة ، وحملتها إلى البيت . .

لاشك أن منظرى كان مضحكاً وأنا أحنو عليها طوال الطريق ، وأضم عليها أصابعى ، خشية أن تنزلق !

وأسرعت إلى الجراموفون أنفض عنه الغبار ، وأديرها عليه . . عجباً . . من كان يظن أننى أبكى ؟!

لم يكد صدى النغم الأخير يموت فى أذنى ، حتى أحسست بالدموع تتجمع فى عينى ، فتركتها تفيض . . لقد أثار اللحن أشجانى من جديد ، وأعاد إلى حواسى صوراً كانت قد بهتت وحالت ألوانها ، بعد أن أتحفت حياتى بلحظات خالدة ، منذ ستة أعوام . .

ووجدت نفسى أحن إلى الماضى بكل ما فيه من لذات وآلام ، نعمت بها وشقيت ، أياماً لن أنساها !

هيه . . لا أقل من أن أنبش الذكريات ، وأعود . . إلى الماضى !

(٢)

٧ يوليو سنة ١٩٣٩

عدت إلى «البلد» منـذ يومين لقضـاء فترة الصيف فيهـا مع أسرتى ، لأول مرة منـذ أربـع سنوات . . منذ غادرتها إلى القاهرة لدراسة الهندسة ، التى لم يبق على انتهائى منها سوى عام .

وبدأ الأقارب والأصدقاء يفدون على منزلنا مهنئين ، متزاحمين على دعوتى للغداء والعشاء و . . . دون أن يتركوا لى فرصة للتملص أو الاعتـذار . ما أعجب شعـور الناس هنا فى أقاليم الصعيد ! لقد تحيرت دمـوع الشكـر والخجل فى عينى ، حين لمست هذه الرابطة التبادلة بين الأسر . إن هذه الصداقة المشبعة بالشوق والإخلاص ، والفـرح للآخـرين ، تتـوارى فى القـاهـرة خلف أقنعـة المـآرب والشهوات ، وتغرق وسط ذلك الخليط المتنافر من مختلف الأجناس والأوساط . .

ما ألذ أن يعيش الشخص فى وطنه حقيقة . . ولو أياماً كل عام .

١٦ يوليو

بدأت أستقر ، وأخلد للراحة السخية التى تمنحها هذه الجهات . إنى أنعم هنا بلحظات استجمام ولذة هادئة ، كلما فرغت لطالعاتى المحببة . يخيل إلـىّ أن المتعة التى أتلمسها بين صفحات الكتب

تهبنى صفاء ذهن عجيباً . . لا يعكره «البارازيت» الذى يتخلل جو القاهرة المكهرب !

١٩ يوليو

دعيت مع أسرتنا إلى سهرة يقيمها الليلة والد رأفت ـ صديقى منذ الطفولة ـ احتفالا بالعام الأول للطفل الذى رزقته ابنته «اعتدال» . بدأت أضيق بهذه الحفلات المملة . أود لو أعتذر عن الذهاب . . لكنى أخشى أن يعد ذلك «حركة سخيفة» منى !

٢٠ يوليو

كيف خطر لى أن أعتذر ؟! . . ما كنت لأنجو من الندم لو فعلت ! فقد كانت السعادة تنتظرنى هناك دون أن أدرى . بدأت أعتقد أن المفاجأة السارة التى يهيئها لنا القدر فى لحظة انشراح ، تجىء أروع من كل ما نسعى إليه شهوراً طوالا !

. . كيف أبدأ ؟

كان البيت يموج بالأسر المتحابة التى دعيت . . وقد ازدحمت ببعضها شرفته ، وبقى الآخرون فى الصالون يتسامرون ويضحكون ، يسودهم ذلك الضجيج الذى عرفت به حفلاتنا .

ولم أكد أجلس حتى ذكرنى المقعد الذى قدم لى ، بإحدى صور الطفولة . كم أنهكنا تلك المقاعد فى صغرنا ، حين كان لا يحلو لنا

اللعب ، أنا و « سلوى » ـ الأخت الثانية لرأفت ـ إلا فى الصالون ، وعلى البيانو الذى يحتل أحد أركانه !

وتـذكـرت «سلوى » . . إنها لم تحضر مع أسرتهـا يوم جاءوا عقب وصولى . . فأين هى ؟

درت بعينى فى أنحاء المكان ، ولكن إحدى الفكاهات التى كان القوم يتندرون بها ، أنستنى ما كنت بسبيله . .

. . . حتى اقـترحت إحـدى المـدعـوات أن تسمعنا «سلوى » مقطوعة على البيانو ، وأيّد الجميع الاقتراح . . فجاءت سلوى من إحـدى الغـرف وقـد أحـرجهـا التصفيق ، ورفـع إلى وجهها حمرة عذبـة ! . . لم أكن رأيتهـا منذ أربعة أعوام ، منذ تركتها صبية فى الخامسة عشرة ، فإذا بها الآن قد نضجت واستطال قوامها . .

. . ولم تكـد تقـترب من البيانـو الـذى كنت أجلس بجـواره حتى . . آه ، لقد صدمتنى فيها عينان ، يشع منهما نور ونار !

ورحت أرمقها وهى تعزف لحن «العيون السوداء » . . وأنا أتلقى الصـدمات تلو الصدمات ! . . كانت أناملها تقطف من البيانو فى رشـاقـة ، صدى الأنغـام التى خلتهـا تترقرق من أهدابها الطويلة الفاحمة ، فتغشى الحسّ واهنة خائرة ، حتى يسكن إليها ويستنيم ، فتعنف وتثور ، وتدب فيها الحياة قوية جامحة ثم . . يعود السكون من جديد .

عجباً ! . . من كان يظن أننى أتلعثم أمام سلوى ؟

لم يكـد صدى النغم الأخير يموت فى آذاننا حتى أحسست بالكلمات تتزاحم على لسانى ، فتقدمت من سلوى محيياً ومهنئًا . . ولكنى لم أنطق بغير بضعة ألفاظ خافتة ، تبخر باقيها على وهج نظراتها فتلعثمت . . ولحظت هى منى ذلك فارتبكت قليلا وهى تبتسم ، وترد تحيتى بهمهمة لا معنى لها ، فى حين راحت عيناها الخجلتان تتلمسان شخصاً آخر يكلمها . .

بدا واضحاً إدراكها أنها قد غدت عذراء ، وغدوت رجلا !

وأعد العشاء ، فوجدتنى أحرص على الجلوس إلى جوارها ، متجاهلا المقعد الذى قدم لى فى مكان آخر . . كانت جرأة أعجب الآن كيف واتتنى ، وإن كنت لم أعبأ وقتئذ ، بل اكتفيت بأن أجلت بصرى بين الحاضرين متلمساً أثرها ، فتبينت أن أحداً لم يلحظها ، إذ كانوا مستغرقين فى الأحاديث والضحكات ، وعيونهم « تهضم» الطعام الشهى الذى حفلت به المائدة !

وشبع الكل ، ما عداى وسلوى . . فقد كان كل همى أن أنتهز فرصة ارتفاع أصوات نفر من المدعوين ، فى حديث صاخب ، لأهمس لها بأية كلمة أو تعليق أجده على لسانى ، كى أشبع بصرى من وجهها ، وأدفىء روحى بالفتنة التى تشتعل فى عينيها . .

وكانت إذا ما أعيتها الردود ، تذكر فجأة أن أمامها طعاماً لم يؤكل ، فتهرب من الجواب ، وابتسامة حيية تتعثر على شفتيها !

ما أغرب الشعور الذى تخطف حواسى فى تلك اللحظات ! إنه

شعور الانسان بفرح طاغ وراحة خفية ، لإمكان ازدياد التفاهم بينه وبين الشخص الذى يخصه بإعجابه ، وينعم بقربه .

لقد صحوت مع الفجر منذ لحظات ، فوجدتنى أتحسس راحة يدى . خيل لى أنها اختزنت الدفء الذى سرى إليها من يد سلوى حين اتكأت عليها عند الباب ، وقت الخروج ، فترة أطلناها عمداً . . وأنا أهمس لها : «إلى اللقاء» !

وخرجت وقتئذ ، وكيانى يعانى حمى فضول عجيب لا يزال يغشانى : ترى هل كتب لروحى الحائرة ، الظمأى إلى عاطفة تطهرها وتغسل وحشتها المقبضة . . أن تجد واحتها أخيراً ؟

٢٣ يوليو

قنعت اليوم من سلوى ـ حين كنا فى منزل أهلها ـ بما نالنى من «رشاش» أحاديثها ونظراتها . .

وقنعت هى منى بالمثل !

كم أتوق إلى أن أسمع منها مراراً ذلك اللحن الروسى الذى يتفق مع طبيعتى الثائرة : لحن «العيون السوداء» ! . . إنها فاتنة وهى تعزفه .

٢٩ يوليو

يا للنحس ! ! لم أكن بالبيت حين حضرت سلوى اليوم مع أسرتها

لزيارتنا ! . . ولم أكد أعلم حتى اعترتنى نوبة من الكآبة والضيق ، فاعتزمت ألا أبرح البيت إلا للضرورة ، طوال الأوقات التى يحتمل حضور «أحد» فيها . . لئلا تتكرر المأساة !

٢ أغسطس

انتهزت اليوم فرصة حضور أحد الزائرين فى غيبتى ، ونبّهت على أهل البيت أن «يتعلموا النظام» ، ويتعاملوا مع الجميع على أساس تبادل الإخطار بالزيارة قبلها بيوم أو يومين !

٢٧ أغسطس

يخيل إلىَّ أن القدر قد كفّ عن مناوأتنا ، وبدأ يقرب بيننا ـ ويحثنا على أن نسهل مهمته ! ـ فقد جمعتنى المصادفات مع سلوى وأخواتها عدة مرات ، فى مناسبات مختلفة : فى الطريق ، وفى سينما البلدية ، وفى منزلهم ، ومنزلنا . . وفى كل مرة كنا نتبادل جميعاً الأحاديث فى أى موضوع ، فأحس لمجرد سماعى صوتها ، وملء عينى من البشاشة التى تفيض من وجهها ، براحة تزيل ما قد يكون بنفسى من الضيق ، وتضفى علىَّ مرحاً وجذلا لا عهد لى بهما . . فأقضى بقية اليوم نشطاً طروباً ! ما أعذب هذا الشعور . .

٨ سبتمبر

استطعت أمس أن أحظى ببضع دقائق قضيناها منفردين ، حين

كنا فى السينما وتركنا رأفت فى «الانتراكت» ليتحدث مع صديق له . كان الهـواء نديا يرطب الـوجـوه ، فأحسست بانتعـاش غريب ، شجعنى على أن أهمس لسلوى ، وبصرى يجوس حائراً فى عينيها :

ـ ألا أستطيع دخول «الغرفة المظلمة»؟

ـ ماذا تقصد ؟ أية غرفة ظلمة ؟

ـ قلبـك ! . . لسـت أطمـع فى غير لحظة فقط ، لأرى كيف انطبعت صورتى فيه !

قالت وهى تضحك ، لتخفى حياءها العذب :

ـ إنها فى دور «التحميض» ، لم تنطبع بعد . . فاحذر من اقتحام الباب وإلا «أخذت الصورة نور» ، وتلفت !

وجاء رأفت . .

وبدأ الفيلم . .

لكنى لم أفهم منه شيئاً !

١٥ سبتمبر

فاجـأت اليوم سلوى وحيدة فى صالون منزلها ، تعزف «العيون السوداء» ، وتصفّر مع البيانو بصوت خافت طروب . . فجلست ـ دون أن أنبهها لوجودى ـ أستمع للأنغام الثائرة . . وجمح خيالى فهيأ لى أشتاتاً من الصور الممتعة : أنا و«زوجتى» سلوى وحيدين ، فى أصيل أحـد أيام الشتـاء ، فى قارب صغير يحتضنه النيل ، وأيدينا

تتلاقى تحت مائه البارد ـ خفية عن العيون ! ـ فتبعث الدفء فى جسدينا . . وأنفاسنا تتعانق فى الهواء ، فتنفث فيه حرارة تعقد فوق رأسينا سحابة ، نختلس خلالها قبلة طويلة ، لانفيق منها إلا وقد بلغنا الشاطىء واندفعنا نجرى صوب البيت فى نشوة ومرح . .

وانتهت سلوى من العزف ، ففوجئتْ بشخص يصفق لها ! . . واستدارت لترانى شبه حالم ، وأنا أسائلها مبتسما عن . . صورتى فى قلبها !

وأجابت ، طالبة منى أن أمهلها أسبوعاً آخر . . ثم مضت لتنادى أخاها ، كى يجلس معنا !

ما أشق الانتظار . .

١٨ سبتمبر

لا أستطيع صبراً . لقد غدا حبى لسلوى الغذاء الذى يقتات منه وجدانى ، والنبع الذى أسقى منه آمالى وأطماعى ، وثقتى فى مصير باسم يقترن بمصيرها ، ومستقبل كله خير ونجاح مطرد . .

أود أن أطمئن إلى أنها تبادلنى نفس الشعور ، وتطمع فى نفس المصير . . فمتى ؟

١٩ سبتمبر

إن حبى للحياة يزداد باضطراد . لقد غدت فى نظرى شيئًا يستحق الكفاح والصبر ، فى انتظار المجهول . . عجيبة حقًا هذه

الأحاسيس التى حفلت بها نفسى منذ بدأت أقطف من عينى سلوى نظرات التفاهم ! . . يخيل إلى أن عالماً جديدًا جذلا ينكشف أمامنا لأول مرة ، حين نحب . . وأن شعاعاً من النور يضىء حياتنا ، منبعثًا من قلب المرأة الطاهرة عندما تحب . . فتتوارى الرذيلة التى لا تختمر إلا فى الظلام ، ونحتقر ضعفنا وماضينا العابث . . ظامئين إلى بعث جديد !

كم أتوق إلى أن يكون قلب سلوى ـ لى ـ مبعث ذلك النور . .

٢١ سبتمبر

لقد دخلت «الغرفة المظلمة » ! . . فتحتها لى سلوى بنفسها ، فرأيت صورتى فيها ، منطبعة بوضوح . .

حين أنبأتها بقرب سفرى إلى القاهرة ، لقضاء العام الأخير من دراستى ، وبأن لا مفر من أن تطمئننى ، أو تطردنى من سمائى التى أحلق فيهـا ، كى أنشـد السلوى على الأرض ، حيث كنت . . صارحتنى بالحقيقـة الحلوة : إن صورتى فى أعـزّ ركن من الغـرفة المظلمة ، وإنها تتمنى لو طال وجودنا معاً !

وسكتت . لم يطاوعهـا الحياء على أن تنطق بأكثر من ذلك . .

وكان فى هذا كل كفايتى من الزاد ، طوال العام الذى أمامى !

وعـدنـا بعـد حين ، وقـد وضعنا فى قلبينا أساس عش مشترك جميل ، بعد أن اختلسنا من « شلة » الأقرباء الذين كنا نتنزه معهم ،

لحظات ممتعة تحدثنا فيها عن ذلك كله ، حديث روحين تآلفا على نغم واحد ، وراحا ينشدان اقتران نجميهما فى سماء الغد المجهول . .

٢٥ سبتمبر

خطر لى اليوم خاطر عجيب ، حين بلغت القاهرة وركبت الترام إلى مسكنى : **هذه المقاهى المكتظة بالناس ، التى يموت فيها نشاط الشباب ، ويخمد فيها ذكاء الرجال ، ويتبلد فيها تفكير الشيوخ ، ليست إلا ثمرة تقاليدنا الفاسدة** . لو كانت كل أوساطنا تستسيغ أن يختلط الرجل بالمرأة فى المجتمعات ، لقضاء أوقات الفراغ فى رفقة طيبة ، لامتنعت مآسى اللقاء وراء الستار ، ولما صارت حياتنا معتمة مملة : الرجل فى المقاهى يقتل الساعات فى غير جدوى ، والمرأة فى البيت يقتلها الضيق والسأم ، وكلاهما بعيد عن الآخر ، جامد الذهن ، فاقد الحيوية والحافز على الكفاح . .

لن أكون من زبائن المقهى قط !

هذا ما قررته . .

أول يناير

كيف فعلت هذا ؟! . . إنها غواية من الشيطان ، تلك التى ساقتنى ليلة أمس إلى (الليدو) ، لأعيش لحظات فى ذلك الجو الراقص الطروب الذى يولد فيه العام الجديد . . فكان أن نقلتنى

بضع كؤوس من الشراب أغرانى عليها فريق من «شبابنا الناهض» . . إلى أحد أوكار الرذيلة . .

ولم أفق إلا فى الصباح !

أفقت ليطالعنى وجه صبوح . . وجه سلوى ، المطل من صورة لها على مكتبى !

لم أستطع مقابلة النظرات الحزينة العاتبة التى خلتها تهطل من عينيها ، لتغسل حبنا الذى دنسته خطيئتى . .

إن ذلك لن يتكرر . . لقد أقسمت ، وقرنت قسمى بوضع صورتها فى جيبى ، غلافاً لقلبى !

٣ أبريل

مرت بى الليلة إحدى أزمات الضيق التى تنتابنى كلما أرهقتنى الدروس ، فألقيت الكتب جانباً وقمت إلى «الجراموفون» أدير عليه اسطوانة «العيون السوداء» . .

وللحال ذكرت سلوى !

وقفز إلى خاطرى يوم الامتحان . لم يبق إلا شهران وأنتهى من الدراسة لأعود إلى . . نفسى ، وأشرع فى بناء العش الجميل الذى رسمنا تصميمه معاً منذ شهور !

ووجدتنى أخرج صورتها من جيبى وأمضى فى لثمها ، وقد دبت فى صدرى مطامع عجيبة ، وانبعث فى رأسى عزم جبار . .

وأحسست بالفارق بين هذه الحياة ، وذلك الركود الذى كان يكتنف روحى السقيمة . . فيما مضى !

ولم أعرف أنى أستطيع الغناء إلا وقتئذ ، حين انكببت على دروسى وقد اشتعل ذهنى بوقود جديد ، ورحت أردد إحدى أغانينا المصرية المحبوبة !

١٠ يونيو

صحوت اليوم وبى إحساس من ينهض من مرض طويل ، ثم تنبهت بعد لحظات لأدرك أنى قد فرغت من الامتحان ! . . ما ألذ أن يخلف الشخص وراءه سنوات من الدراسة المتصلة المرهقة ، ليتطلع إلى مرحلة أخرى من الطريق ، وآفاق جديدة . .

لقد اعتزمت العودة إلى «البلد» غداً ، قبل ظهور النتيجة ، فإنى لا أطيق الانتظار . . يا إلهى ، ترى كيف أرى سلوى بعد هذه الشهور الطوال ؟

١٢ يونيو

يا لنظراتها الظمأى وهى تلقانى ! . . قرأت فيها أن حبى قد وجد فى قلبها منبتاً خصباً ، فتعمقت جذوره وترعرع . . ولاشك أنها قرأت فى نظرتى نفس الصفحات ، فقد أرخت عينيها والغبطة تطفر من أهدابها ، وتشيع فى وجهها حمرة ساذجة . .

كم هى فاتنة !

٢٣ يونيو

لم تكد الدنيا تسعنا من الفرح ، حين زففت إلى سلوى خبر نجاحى . . ترى متى أوفق إلى عمل يمهد أمامى السبيل إلى رضا والديها ، ولو تأخر الزفاف سنوات ؟

٢٧ يونيو

ثار والدى فى وجهى اليوم حين انبأته بفضيلى العمل فى إحدى الشركات على الوظيفة الحكومية التى بدأ يبحث لى عنها ، ويورّط الناس !

عبثًا يحاولون . . فلن أقبل وظيفة آلية ، تقبر فى دهنى كل نشاط وطموح . إن آمال سلوى تفوق هذا المستقبل الراكد المحدود .

٥ يوليو

حدث اليوم ما دفع إلى مخيلتى مزيجاً من الخواطر السوداء ! كنت أرفع عن «الجراموفون» اسطوانتى المحبوبة ، حين انزلقت من أصابعى ، وانكسرت !. . أحسست لحظتئذ كأن طائر الشؤم قد انتزع قلبى من مكانه ، وعجزت عن مغالبة موجة القلق التى طغت علىّ طوال الصباح ! ولكنها كانت أوهاماً . . لم يلبث أن وصلنى خطاب من إحدى الشركات الهندسية التى كنت قد طلبت العمل فيها منذ أيام . لقد قبل طلبى ، ولم تبق سوى الإجراءات اللازمة . .

إنه المستقبل الذى كنت أطمع فيه !

٧ يوليو

لقد تحطمت القيثارة فجأة . . على غير انتظار !

جاءتنى سلوى دامعة لتنبئنى بما حدث : لقد جاءها أبوها مع الفجر ليهنئها على «النصيب» الموفق الذى طلب يدها ، فقبله باغتباط ! يكفى أنه موظف كبير يتقاضى مرتباً دسماً ، وله رصيد فى البنك . . فضلا عن أنه يناهز الأربعين ، فهو رجل «رزين» . . وله فى البلدة كلمة مسموعة ، و . . .

ولم تملك سلوى أن تمضى فى تعداد مناقب «العريس» المنتظر ، فغاض صوتها ، وانخرطت فى البكاء . .

يخيل إلى أن نوعاً من الكبرياء يولى الإنسان قوة مفتعلة حين يرى من هو أضعف منه ، أولى بالرثاء . . فقد مضيت أسرّى عنها ، وأسقى فى قلبها الرجاء ، وأنا ـ فى أعماقى ـ فريسة لليأس !

كلا ، لن أتخلى عن حبنا . .

سأواصل النضال !

٨ يوليو

كم أنا تعس !

قابلت أباها الليلة ، وصارحته بحبى لسلوى ، ولكنه رفض . . أبى أن يقيم وزناً «لهذه الخيالات التى تمادى فيها شباب اليوم !»

وكاد لسانى يصارحه أيضاً بحبها لى ، لولا أنى ذكرت أحاديث

الناس عن الفتاة التى تحب ، كأنها أجرمت ! فأشفقت على سلوى من عاقبة وقوف أبيها على نبأ هذا «الفجور»!.. ولم أجد بدًّا من إكمال عبارتى بالتساؤل عن .. موافقة سلوى على هذا الزواج ؟

يا إلهى .. كيف استطعت أن أستمع إلى هذا «التاجر» وهو يتحدث ؟! : «إن الأمر لا يحتاج إلى موافقتها ، فالرجل لائق ، وموارده كفيلة بإسعادها» .

... كان يتكلم ببساطة عن مميزات «الصفقة» ، وعن موعد تسليم «البضاعة» !

لقد تحدد القران بعد شهر ..

ولم أسمع أكثر من ذلك !

٩ يوليو

كان مأتماً حزيناً !

لقد دفنا معاً حبنا الموءود ، وأهلنْا عليه الذكريات ..

وكان المشهد صامتاً موحشاً ، وليس فى المكان سوانا .. فإن الميت مكروه ، حظى بسخط المجتمع .. والناس !

ووقفنا أنا وسلوى نشيعه ...

وران علينا السكون ..

كنا نذكر المكان ، فقد وقفنا عنده منذ شهور ، يوم رسمنا الأساس لعشنا الجميل .. ولكن الرسم قد زال ، قبل أن يرتفع

البنـاء ! يبـدو أن النيل قد تسلل فى غيبتنا إلى الجرف ، ولعق كل شىء ، فقد زالت أيضا الحشائش الندية التى كانت تطرز الشط ، يوم قطعت جذعاً منها ولففته حول أصبع سلوى . . فتفاهمنا !

لم تعد الحشائش ترعى عهدنا ذاك ، فقد جرفها النهر فيما جرف ، ومضى !

لم نكن يومئذ وحدنا ، ولكننا اختلسنا تلك اللحظات ، فى غفلة عن العيون .

واليوم ، التقينـا منفردين ، ولكن أرواحنا لم تكن معنا . . لقد انفلتت إلى الماضى لتحيا فيه من جديد ، بضع لحظات . .

قلت ونحن واقفان : «لقد انتهى كل شىء . . ليعد كل منا إلى دنياه ، علّها تنسيه الفردوس !»

قالت : «محال أن أغالط نفسى . ربما استطعت أنت النسيان ، فأمـامـك دنيـا أخـرى ، ومستقبـل ، وأطماع ، وستجد حتماً من تسعـدك . . ولكن حالى تختلف . إن الزواج هو كل دنيا المرأة ، ومستقبلهـا ، وأطـماعهـا . . وقـد اختـيرت لى دنيـاى ، وانتهى الأمر ! . . إنى تعسة يا فكرى . . من كان يظن أننى أتزوج رجلا تفصـل بينه وبينى عشرون عاماً ، ولم أره إلا منذ يومين ؟ . . إنى أعلم ما سيجول فى أفكار الناس ويدور على ألسنتهم ، حين يروننى ليلة الزفاف : سيجزم الكل أنى تزوجته لماله . . وإنى لن أحزن يوم يموت ! . . هل تذكر الليالى السعيدة التى كنا نطيل فيها النظر إلى

السماء ، ونرمز لهنائنا بألمع نجمين ؟

. . . إنى لا ألمح الليلة نجمى بين النجوم . . لا أرى أمامى إلا الظلام ، الظلام دائماً . أوه يا فكرى ، كم أنا خائفة !»

وحجبت وجهها بيديها وهى تدفنه فى صدرى . .

وتركت رأسها ينام على ضلوعى ، وأنا أودع شعرها قبلات صامتة ، لم تحسّها . . حتى هدأت ، ورفعت وجهها إلىّ . .

كان قد تندّى بنجوم صغيرة ، لم تلبث أن هوت . . وانطفأت ! وترنحت على شفتيها ابتسامة شاحبة ، ونحن نفترق . .

ثم مضت . . ومضيت ! .

إنها محقّة : ما أظلم الطريق . . أمامى أنا الآخر !

(٣)

٢ نوفمبر ١٩٤٦

. . . ولم أكن واهماً ، يوم أحسست ذلك منذ أعوام . . فإن روحى ما تزال تتخبط فى الظلام ! . . لقد تنفّس الفجر منذ لحظات ، وأنا فى مقعدى لم ألمس الفراش . إنى أذكر ما حدث : كنت ذاهباً ليلة أمس إلى المقهى الذى اعتدت أن أقضى فيه أكثر من ساعات عملى فى «المصلحة» . . حين لمحت الأسطوانة ، فابتعتها وحملتها إلى البيت ، وحملتنى هى إلى الماضى ، وعدت منه متعباً ، فأدرت « الجراموفون » من جديد . .

وأطفأت النور . . وأغمضت عينىّ . .

لم أكن أنوى أن أنام . . قصدت فقط أن أريح أعصابى ، وأتحرر من المرئيات التى تفسد على خلوتى مع «العيون السوداء »!

ولكننى أغفيت . .

ورأيت سلوى فى أحلامى مرارًا . . رأيتها واقفة أمام المرآة تصلح شعرها الفاحم الذى أودعته قبلاتى الصامتة ، يوم افترقنا . . منذ خمسة أعوام ! . . وفجأة تطلّ على من إطار النافذة ، وقطرات المطر تسيل من عينيها خلف الزجاج . .

ثم تهبط إلى جوارى لتزف إلى أنها قد غدت حرة ، وستكون لى ! وتردف قولها بقبلة ، فتلفح أنفاسها وجهى و . . . أفيق منتشيا . . لأجد الغرفة فى ظلام خانق ، وليس بها سواى !

يا إلهى ، كم يلذّ لى أن أتعذب بالذكريات !

٧ نوفمبر

كلا ، لم أعد أطيق . .

لقد أمعن القدر فى هوه السمج !

بينما كنت أودع صديقاً لى ، رأيتها الليلة فى القطار ، واقفة بالنافذة تبتاع حلوى «لطفلها» ! . . وجرى الطفل ليلحق بأبيه فى ديوان قريب . .

إذن فهم عائدون بعد إجازة العيد ؟

أشفقت أن نلتقى ، بعد فراق أعوام ، فتعاودها أطياف ربما تكون قد نسيتها ! . . ولكنى لم أقو على الابتعاد ، فإن روحى ـ الظمأى منذ بعيد ـ قد استمرأت أن ترتوى من «العيون» التى أمامها !

ورأتنى سلوى !

قلت وأنا أقمع الانفعال فى صوتى : «أنت . . هنا ؟»

قالت ويدها تختلج فى يدى : «وَيْ يا فكرى . . أهكذا تنسانى ؟»

ـ إنك سعيدة ، وإلا لما ظلمتنى . قولى إن قلبى لم يطاوعنى على أن أدع الماضى يلاحقك ، ويعكر دنياك الجديدة كلما صفت ، وبدأت تنسين . .

ـ ولكن دنياى لم تصف ! . . أجبرت قلبى على أن ينسى ، من أجل زوجى ، فهو يحبنى ، ويتفانى فى إرضائى . . ولكن ذلك كله لم يجُد ! إن سدوداً قوية تفصل بيننا فى الطباع ، والأفكار . . وكل شىء . . إنه لا يفهمنى ولا أفهمه . . فهو ليس من دنياى !

لم أحرك عينى عن وجهها وهى تتكلم . . كانت قسماته تختلج ، وتنطق بالألم . . وعيناها ، أين الفتنة التى كانت تشتعل فيهما ؟ لقد انطفأت ، ولمعت مكانها الدموع !

ووجدتنى أقول : « كلها أوهام يا سلوى . . إننا فى فجر الشباب نكون أغراراً ، نسلم قيادنا للأخيلة ، ونسرف فى الأحلام . .

لانكاد نلمح بريقاً حتى نظن وراءه السعادة ، فى حين تكمن هذه وراء المادة والمال ! . . ما الحب إلا سراب زائف . . »

ولكنها قرأت فى عينى أنى أكذب ، لأواسيها ، فحاولت أن تبتسم . . لكن الابتسامة تخاذلت على شفتيها وهى تهمس ، خلال صفير القطار : «وداعاً يا فكرى . . لا تقلق . . إنى بخير»

وعاد زوجها ، فاستدارت إليه بوجه بشوش . . وأمسكت بالطفل تحنو عليه . .

كم هى نبيلة . . وشقية !

***

وحين ابتعد القطار ، وسار بى الترام فى طريق (الجيزة) الغارق فى الوحشة والسكون ، كانت المدينة تلقى وراءنا ضحكاتها الساخرة . . !

ما جدوى النفاق . . إن فى قلبينا حقداً دفيناً ، على المجتمع . . والناس !

(نوفمبر ١٩٤٠)

الأرملة المرحة

كانت ـ وهى تخطر إلى داخل البيت ، الغاص بالمدعوين ، فى ثوب السهرة «الموسلين» الأسود الذى يغلف ذراعيها الناصعتين بكمّين من الدنتلا ، تتقدمها نفحةٌ من العطر المسكر ، تفسح لها الطريق ـ تمثالا نابضاً بالغواية ، ونموذجاً للسحر الحرام !. . للفتنة التى تمشى على ساقين ، فى خطو رشيق متزن . . خطو الجمال الواثق من نفسه ، وسلطانه ، في غير زهو . . وكأنها تمشى على بساط من قلوب ، ومن جباه !

وتلقفتها أبصار الرجال بخليط عجيب من النظرات ، تحمل جميعاً نفس المعانى ، والأمانى . . والحسرات !. . أما عيون النساء فقد تلقتها بفيض مخالف من المعانى ، والأمانى . . واللعنات !. . لم تكن بينهن إلا من تخشى على رجلها من سحر هذه المرأة التى استفاضت فى مجتمعات (جاردن سيتى) أنباء حياتها العابثة الطليقة ، من يوم أن هبطت الحى ـ قادمة من مكان مجهول ، وماض مجهول ! ـ فلم تمض شهور ، حتى صارت أقدار الرجال تقاس فى مجتمعات النخبة المصفاة من المترفين ، بمقياس العصر : بمقدار حظوتهم لدى «بهيجة»!. . كان السعيد هو الذى تشير إليه أصابع

الناس ، وألسنتهم ، حاسدة ، مشيدة بـ «الشرف الرفيع» الذى أتيح له : شرف عبور قدميه المتعثرتين عتبة «الجنة» . . أو مسكن بهيجة الخاص !

لكن همسات ـ وغمزات ! ـ الحاسدين ، المحرومين ، لم تكن تعرف الثبات أو الاستقرار . كانت تنتقل كل حين بين مختارى بهيجة المحظوظين ، كما تنتقل كرة «الروليت» بين خانات مائدة القمار ! . . فلا يمضى شهر إلّا وقد تغير «الجواد» المفضل ـ «الفافورى» ـ فازداد بتغيره عدد الظافرين بدخول جّنتها واحداً . . وازداد عدد المطرودين من الجنة ـ المحاربين القدماء ! ـ واحداً . . فإن بهيجة امرأة قنوع ، لا يلتقى فى جنتها عاشقان !

***

. . وأقبلت عليها ربة البيت مرحبة ، والتفّ المعجبون حولها فى تهافت العبيد ! . . أما هى ، فسارت تنثر على مستقبليها الضحكات الناعمة ، واللفتات الناعسة ، من طرفها الساجى . . حتى بلغت آخر البهو ، فانضمت إلى حلقة مختلطة من الأصدقاء ، لعلها آثرتها بشرف الجلوس معها ـ دون غيرها من الحلقات التى وجهت إليها الدعوة ، فى الطريق ! ـ لأن مضيها إلى أقصى البهو يتيح لها أن تعرض حسنها على الجميع ، قبل أن تخلد إلى الجلوس . . وتستريح !

وفيما هى تعتدل فى جلستها ، فتضع ساقاً على ساق ، وتدلى ثوبها

فوق ركبتيها بأناملها الرشيقة ، فى حركة احتشام مفتعلة ـ هى أمعن ما تكـون إغـراء ! ـ التقت عيناها بعينين محمومتين ، كانتا تتبعانها دون وعى منذ افترّ عنها باب المكان !

ولأول مرة ـ فيما يذكر ـ أحس « فتحى » أنه . . تعس ! وتـولاه سخط قوى على نفسـه ! كيف يعيش عفيفاً محروماً ، وفى الـدنيـا مثل هذا الجمال . . المباح ؟ . . وإلى متى يظل يحيا « على هامش الحيـاة » ، ينظر إلى دنيا المتعة ، والخمر ، والنساء ، نظرة «السجـين» إلى حيـاة الحـرية ، واللهو ، والانطلاق . . بل نظرة القـانع بأن يقف مكتوفًا ، وصحاف الطعام تتوالى أمامه ، حافلة بالمشهيات . . وموكب الحسن يتتابع أمام بصره ، مغرياً بالحماقات ؟

. . إلى متى يظل سجـين هذا الخجـل الممقوت ، الذى يكبل شبابه بأغلال موجعة . . أغلال من حرير ، أشد إدماء من أصفاد الحـديـد ؟ . . هذا الخجل الذى «نكبته » به نشأته المحافظة ، فى عصر كله تحرر ، ودنيا كلها أحرار ؟ . .

أتـرى قد كتب عليه أن يكـون الراهب الوحيد ، فى معبد كله زنـادقة ؟ . . لقد طالما تندر إخوانه عليه ساخرين ، وعيروّه بحيائه «المصطنع» ، وبرداء الوقار البغيض ، والترفع الكاذب الذى يصر على أن يرتـديه ، ويزهـو به على النـاس . . وهـو فى الـواقع رداء العاجزين ، لا الزاهدين ، كما قالها له يوماً صديقه حامد . . المرحوم حامد !

يا لمرارة الذكرى ، وسرعة مرور الأيام ! . . أحقًّا قد انقضى أكثر من عام ، منذ فارق حامد الدنيا ؟ . . لقد اختطفه الموت من حياة متخمة بالهناء ، وكأنما رأى أنه قد استوفى حظه من مباهج الدنيا ! . . كان أحد أولئك الذين يحبوهم القدر بموهبته الكبرى : فن الحياة . . فيحسنون الاستمتاع بكل قطرة منها ، ويعيشون ليومهم فقط . . يقتنصون المسرات أينما وجدت ، ويضللون الأكدار . . يغرقونها فى لجة من الضحك ، والصخب ، والانشراح . .

. . وهكذا سعد حامد بالعزوبة . ارتشف منها أمتع ملذاتها . . فلما أحس أنه ارتوى ، وتعب ، لم يضيع وقتاً فى التردد . . بادر بالزواج . . فكان كمن انتقل من جنة إلى جنة ! . . نبذ معيشة الفوضى والبوهيمية ، بين أذرع صديقاته العابثات ، واستكان لحياة الانتظام والدعة ، فى عشه السعيد ، فى أحضان «ملاكه الطاهر» - كما كان يدعو زوجته !

وحين رزق طفلته «سامية» ، ازداد تعلقه بالبيت ، وإهماله «شلة» الأصدقاء . . فلم يعد يوافيهم فى المقهى - و«يتعطف» عليهم بجلسة ، قصيرة - إلا حين كبرت سامية ، وصار يأخذها معه كى تلاعب زملاء عزوبته ، وتضحكهم بلكنتها العذبة . .

يا لليتيمة الصغيرة ! إن فتحى لم يرها منذ وفاة أبيها ، لكنه مازال يذكر ابتسامتها ، ونغمها الحلو وهى تناديه بـ « عمى» ، كى تشكره

على كأس «الجيلاتى» التى اعتاد أن يقدمها لها ، كلما رآها فى المقهى بصحبة أبيها . .

***

. . وأفاق فتحى من استرساله ، على جرْس ضحكة فاترة من بهيجة ، ترقرقت فى سمعه كنوع من الخدر اللذيذ . . فانتشى ، وعاد يسترق نظرات ظامئة إليها ، وقد أحس بدمه يلهب جسده كالسياط ! كلا ، إنه ما عاد يحتمل : كفاه تبتلاً ، وعذاباً ، وحرماناً . إنه سيتمرد على خجله ، ويحطم أصفاد الوقار الجائر ، الذى لا يليق بالشباب ! . . سيخلع رداء الترفع الكاذب ـ الذى يزهو به على الناس ! ـ وينزل من عليائه ، كى يشاركهم الحياة فى «الوحل» ! . . إن اللهو بالأوحال لعبة الأطفال ، وهو يريد أن يعود طفلا ، يعبث كما يحلو له . . ويرتكب الحماقات ! . . وأى إنسان يقوى على مغالبة الحماقة ، أمام فتنة كالتى أمامه ؟

***

وفيما هو يدير فى رأسه هذه الخواطر ، اصطدمت عجلة تفكيره بترس ضخم ، بخاطر مفاجىء ، همس فى وعيه : «يا أحمق . . إنك تراود نفسك كى «تضحى» ، وتقدم على هذه الحماقة ؟! . . ولكن من أدراك أن فاتنتك ستعبأ بك ؟ . . من أنت . . وما هى مغرياتك ؟ . . أهى وجهك ، الذى خاصمته الوسامة ، أم جيبك ،

الذى خاصمه المال ؟ . . بالله اعرف قدر نفسك ، واترك الميدان لفرسانه »!

. . وإذ ذاك تملكه شعور بالضعة والهوان ، أطفأ من حدة حماسته وكبح جماح أطماعه ! . . ثم أسلمه لشرود ذليل ، طويل . . لم يفق منه إلاّ على صوت ربة البيت وهى تقبل عليه ضاحكة ، متسائلة :

ـ هوه هوه ! . . فى أى واد أنت ؟ «خليك معانا» من فضلك . ولكنـــك معـذور ، فإنـك تجلس وحيداً ، كيف لم أتنبـه لهذا من قبل ؟ . . آسفة جدًّا . . ولكنى سأكفر عن سيئاتى فوراً !

. . ثم مالت على أذنه ، وهمست متخابثة :

ـ سأقدمك إلى خير من ترفه عنك ، إلى «الأرملة المرحة » ، كما نسميها ! ألم تسمع عن «بهيجة هانم» ؟ هيا هيا . . فقط أرجو ألا تخيب رجاءنا فيك !

. . وأردفتها بغمزة من عينها ، ذات مغزى ! . . لكم يلذ أحياناً لربات الخدور ، العفيفات ، أن يتصدقن على العزّاب . . بغيرهن !

ثم قادته من يده إلى . . حتفه !

***

ـ هل لك فى كأس خامسة يا بهيجة هانم ؟

ـ شكراً ، لا أستطيع . .

ـ إذن فلنخرج إلى الحديقة . .

ـ ماذا ؟ هل سئمت ضجيج الراقصين ؟

ـ بل ضقت بهذه النظرات التى تكاد تلتهمنى من كل جانب . . لكأن الجميع يحسدوننى على رفقتك !

ـ ومالك تترنح . . هل ثملت ؟

ـ من خمر عينيك !

ـ أهكذا سريعاً ؟ . . يا مسكين !

ـ (فى صوت غير مسموع) كنت مسكيناً حقًّا ، فى ماضى حياتى . . أما الآن !؟

ـ (وهما يجلسان على أريكة فى الحديقة) ماذا تعنى بهذه النظرات ؟ . . ألم تتعب من التحديق فى عينى ؟

ـ إنى أسائل نفسى : كيف أحس بالظمأ ، وأمامى هاتان «العينان» ؟ . . ولكن يبدو أننى كلما اغترفت منهما نظرة ، زادتنى لهيباً . إنهما تزيدان الظمأ . . كماء البحر !

ـ (كالشامتة) أرأيت ؟ . . لقد بدأت تشفى من الخيال والشعر ، وتهبط من سمائك !

ـ إن رائحة الشواء . . تطغى على عبير البنفسج !!

. . . . . .

. . . . . .

ـ ماذا تقول . . أكنت تقول شيئًا ؟

ـ هل كنت نائمة ؟ آسف إذ أيقظتك من أحلامك !

ـ بل أحس بدوار . . لقد أثقلت علىّ بالخمر . (وهى تتلفت حواليهـا) ما هذا ، أكثر المدعوين قد انصرفوا ؟ لابد أن الليل قد تقدم . يجب أن أذهب !

ـ ومتى نلتقى ؟

ـ (فى ضحكة ساخرة ، ذات معنى) وهل افترقنا ، حتى «نلتقى» ؟

ـ (فى ارتباك) آه ، عفواً . . لم أكن أقدر أنك ستولينني شرف مرافقتك حتى البيت . .

***

واستقلا عربة «حنطور» ، لم تكد تمضى بهما حتى أمالت بهيجة رأسها على كتفه ، واستسلمت لتخدر ، يشبه النعاس !

وكـان الهواء يعبث بشعرها ، فيلقى خصلات منه على خده ، تدغدغ أعصابه . . فيتفاقم إحساسه بالتعاسة ، وهو يكظم شوقه إلى احتضان هذا الجسد الحريرى ، اللاصق به ! . .

. . وكلما مرت العربة تحت أحد مصابيح الطريق ، أضاء بنوره الخافت وجهها الساجى ، وأجفانها المسدلة ، ورقبتها ـ الشبيهة برقبة تمثال من المرمر لإحدى آلهات الإغريق ! ـ فزادها بهاء ، وسناء !

وأحس الفتى أنه فى حلم . حلم رائع ، سرقه من دنياه الكئيبة ـ

الخالية من المسرات ! ـ وألقاه فجأة فى فردوس بهيج من الأحاسيس والأخيلة الممتعة ، لم يكن له عهد به من قبل !

***

. . والعربة ماضية بهما ، فى سكون الليل . . والجواد يخب فوق أرض الطريق ، فى انتظام رتيب ، وكأن حوافره توقع «رومبا» ثائرة ، رقص على نغمها قلب الفتى بين ضلوعه ، رقصة النشوان . . وتملكته رغبة مباغتة ، فانحنى على الفم الناضج بين خديها ، يقطف عنابتيه ، وهو يودعه قبلة . . استجابت لها المرأة بشفتيها ، وهى تغمغم كالنائمة ، دون أن تحرك ساكنا !

. . وكانت العربة قد بلغت بيتها ، وهى ما تزال فى سبات المخمورة . . فحملها الفتى على ذراعيه إلى المصعد . . ولحظتها فقط ، بدأت تفيق ، وتمسح النعاس عنْ أجفانها المتكسرة ، بأناملها الوردية . . وهى تبتسم له بعينيها الناعستين ، ابتسامة تسلب الوعى . . !

. . ثم دعته للدخول ، كى يستريح من عناء . . المصعد !

***

كلا . . إن هذا كثير ! . . ما عاد المسكين يحتمل هذه الفرحة الدافقة التى تسرى فى بدنه ، وتنهش أعصابه ! . . أحقًّا آن له أن يعبر عتبة «الجنة» ! . . إنه لا يصدق نفسه ، وحسّه ! . . لا يصدق أن سنوات حرمانه الشاق قد انتهت ، وفردوسه المفقود قد وجد !

. . وأدخلته إلى الصالون ، ثم استأذنت منه فى أن تغيب لحظات . . فغاص فى مقعد وثير ، مسنداً رأسه إلى الخلف ، وغاب فى تأملاته السعيدة ، وابتسامة الارتياح الخالص ترفّ على فمه !

. . كم مضى عليه فى جلسته تلك ؟ . . إنه لا يذكر ! . . لا يذكر إلا أنه تنبه فجأة على حفيف خطوات خفيفة ، بالقرب منه . . فاعتدل فى جلسته ، وإذا أمامه طفلة رائعة ، حافية القدمين ، تفرك عينيها لتمسح النعاس . .

ـ سامية ! . . رباه ! . . سامية ! . . أهذا ممكن ؟

ـ فين ماما ؟ . . وفين دادة ؟ . . صحيت مالقيتش حد فى الأودة . . أنا خايفة أنام وحدى .

ـ سامية يا حبيبتى ! . . انت لسّه مش عارفانى ؟ مش فاكره «أونكل فتحى » ؟

ـ أونكل . . فتحى ؟ أيوه صحيح . . كنت فين من زمان يا أونكل ؟ وفين بابا ؟ . . إمتى حايرجع من السفر ؟ . . هو لسه ما اشتاقش علىّ ؟

. . وأدركتها الغصة ، فاغرورقت عيناها بالدموع . . وانخرطت فى نشيج خافت ، بين ذراعيه . . بينما راح هو يغرق وجهها بقبلاته ودموعه ، وقد تناهبته الأفكار : إذن فبهيجة هى «الملاك الطاهر» الذى كان حامد يتعبد فى محرابه طيلة سنوات الزواج ؟!

. . وكـاد فتحى يستسلم لطوفـان الـذكـريات والمشـاعـر التى داهمتـــه ، لولا أن تنبـه لموقفـه . . فأراد أن يحسمـه ـ قبـل فوات الأوان ! ـ فتناول وجه الطفلة بين راحتيه ، وهو يقمع دموعه :

ـ سامية ، اسمعى يا حبيبتى . . أنا رايح آجى مرة تانية علشان أجيب لك حاجة حلوة . لكن دلوقت أنا ماشى . . لازم أمشى . بس أرجوك تقولى لماما أن «أونكل فتحى » اللى كان صاحب بابا . . بيسلم عليك !!

. . وطبع على خد الصغيرة قبلة أخيرة . . ثم انقلت من الغرفة يسترق الخطى ! . . وفيما هو يعبر الردهة ، متلصصاً ، قفز قلبه ! . . لمح «بهيجة » واقفة أمام المرآة ، فى زاوية مخدعها المعطر ، تتزين . . وتطوى «روبا» حريريًا على بدنها الرخص ، وهى تتمايل وتبتسم . . لنفسها !

. . انتابه دوار قاس ! . . فتردد برهة ، ثم وقف يرقبها من مكانه ، وهو يرتجف ، كريشة فى مهب إعصار من الأحاسيس المريرة المتضاربة ! . . ثم ـ كأنما ليقطع على نفسه الطريق ! ـ أغمض عينيه ، ومد يده المرتجفة إلى الباب ، يفتحه فى حذر . . ثم يغلقه خلفه !

. . وانطلق يهبط السلالم عدواً ، وهو يلهث . . كمن يفرّ من خطر داهم !

***

وحين استوى فى داخل أول «تاكسى» صادفه ، وأمر السائق بالإسراع . . تنفس الصعداء ! . . أحس بارتياح ، موجع !

رباه . . لقد نجا !

(يونيه ١٩٤٦)

obeikandl.com

في المكتبات

كيمياء السعادة

حسين أحمد أمين

obeikandl.com

محتويات الكتاب

أيها الربيع . . ترفّق! ٥

الرد خالص ! ١٩

السراب ٢٧

قبض الرّيح ٣٦

خبز الهوان ٤٩

أزهار . . بيضاء ! ٥٧

رجل . . له ماض! ٦٩

أبو الهول . . امرأة! ٩٠

ضلال قلب! ١٠٣

عيون حالمة! ١١٢

نادية ١١٩

العيون السّوداء ١٣٠

الأرملة المرحة! ١٥٢

obeikandi.com

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًّا
- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًّا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

obeikandl.com

رقم الإيداع	١٩٩٩/٥٧٣٢
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5811-3

١/٩٩/٣٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

obeikandl.com